A H W A R
Publishing and Distribution

من أدب السيرة

ذكريات مؤلمة من ايام الزمن الجميل

المناضل الصغير

محمد حسين النجفي

أهوار

المناضل الصغير

ذكريات مؤلمة من ايام الزمن الجميل

عنوان الكتاب: المناضل الصغير
ذكريات مؤلمة من ايام الزمن الجميل
المؤلف: محمد حسين النجفي
التخصص : من ادب السيرة
القياس: 14 x21 سم
الطبعة الاولى : 500 نسخة / 126 صفحة / 2023
ISBN: 978-9922-9858-7-9
جميع الحقوق محفوظة لدار ومكتبة أهوار للنشر والتوزيع dar ahwar ©

العراق- بغداد- شارع المتنبي
هاتف: 07717938500
07712482615
أهوار للنشر والتوزيع :face
دار ومكتبة أهوار :page
Instagram: darahwar
e-mail: ahwar.publisher@gmail.com
الآراء الواردة في الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف.

يمنع نسخ أو استعمال الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية او تخزينه في نطاق استعادة المعلومات او نقله بأي شكل من الاشكال من دون إذن خطي من الناشر.

من أدب السيرة

محمد حسين النجفي

المناضل الصغير

ذكريات مؤلمة من ايام الزمن الجميل

الإهداء 6
شكر وامتنان 7
تقديم 9
مقدمة 11
الطفولة السعيدة
- النجف الأشرف 15
- الهجرة الى بغـــداد 17
- الكرادة الشرقية 19
- شارع الهندي 24
- الثورة والزعيم.....28
المناضل الصغير
- اضراب البنزين.....33
- المتوسطة الشرقية 37
- مناهضة التجارب النووية.....40
- مركز شرطة المنصور 43
- زيارة ليتها لم تحدث 44
- الموقف العام: القلعة السادسة 45
- اعادة التحقيق 46
- الافراج لحين المحاكمة 48
- يفداك من راعك 49
- المحكمة العرفية 50
- غازي لعيبي وزمرته 50
- الصديق غير المخلص 51
- المحكمة العرفية الثانية 53
- ثلاث حكومات وقضية واحدة 54
- سفرة اتحاد الطلبة للصدور 55
- احداث الثانوية الشرقية وإضراب الطلبة.....60
- حرب شوارع 65
- اعلان اضراب الطلبة 68
- حوار ومفاوضات 70

- حملة اعتقالات 71
- التدخل المصري 72
- مقابلة إسماعيل العارف.....72
- مظاهرة السلم في كردستان 74

الانتكاسة الكبرى

- ردة شباط 1963 وتداعياتها 79
- اليوم الاول 81
- اليوم الثاني 83
- بيان رقم (13) 84
- ناكري الجميل 84
- سلسلة الاعتقالات: الاعتقال الاول 86
- نادي النهضة الرياضي 86
- واسطة خير 88
- الاعتقال الثاني 89
- حوار مع صلاح عمر العلي 90
- التحقيق في مكان مجهول 92
- تحت المراقبة والتحقيقات اليومية 95
- السفر الى الاتحاد السوفيتي 96
- اعدام سلام عادل ورفاقه 98
- حركة حسن سريع 3 تموز 1963.....99
- الشهيد ابو سعيد 101
- حركة 18 تشرين الثاني 1963.....101
- جرائم مرت بلا عقاب 102

مقالات وآراء

- يوم تحولت النوادي الرياضية الى معتقلات 105
- إسقاط جنسية المناضلين.....106
- فهود بين نخيل الكوفة 115
- التقييم الموضوعي لثورة تموز 1958.....120
- اسئلة ستبقى في ذهن المؤرخين 123
- الخلاصة والدروس والعبر 124
- كلمة أخيرة 125

الإهداء

الى من له رأي في الحياة

وضحى في سبيل ما يؤمن به

الى المناضل المجهول

الذي عُذب وصرخ ولم ينحني

الى من استشهد في سبيل قضيته

ولا نعرف له اسم او صورة او قصة

نتحدث بها للأجيال

شكرٌ وامتنانٌ

أشكرُ وطني الغالي العراق الذي وُلِدْتُ وتَرعْرَعْتُ فيه، والذي أكنُّ له خالصَ ودِّي ومحبَّتي التي لم تتزعزع، رغم قساوة الظروف التي مررتُ بها شخصيًّا أنا وعائلتي وجيلي التموزيّ الخالد. أشكرُ أمِّي وأبي على تربيتنا لمحبَّة الوطن والتصرُّف بمسؤوليَّة، وأعتذرُ منهما وإنْ كان بعد فوات الأوان على ما سبّبته لهما من قلقٍ وخوفٍ ورعبٍ وأذى، نتيجة انخراطي ومساهمتي بحماس في نشاط سياسي في عمر مبكر، وفي ظروف قاسية جدًّا. ظروف وأحداث، لم أدفع ثمنها منفرداً، وإنّما شاركتني في ذلك عائلتي وبالأخصِّ أمِّي وأبي .

أشكرُ إخواني وأخواتي وأصدقائي على تشجيعهم ومحبّتهم وإسنادهم. والشكرُ الكبير لزوجتي ورفيقة عمري هاسميك درتافيتيان، وابنتي الغالية ندى وابني العزيز عامر، على محبّتهم وتشجيعهم والسماح لي بتركيز جزءٍ من الوقت العائلي، كي أضعَ هذه الكتابات بين يدي القرَّاء الكرام، لتكون جزءاً من كتابة التاريخ الذي عادةً ما تكتبه السلطات الحاكمة بحقائق ومعلومات ملفَّقة.

للأسف الشديد مرَّتْ أربعون عاماً على العراق من ستينات القرن الماضي لحين سقوط الصنم عام 2003، لم يكنْ أمام الجيل الناشئ في تلك الأعوام سوى ما تطرحه الحكومات السلطويَّة من معلومات، مما أدى الى نشوء أجيال لا تعرفُ سوى الحقائق التي قدَّمتها لهم السلطات على طبقٍ من ذهب.

وختاماً لابد لي من ان اشكر من وقف مع ابي، وكان واسطة خير فعالة انقذتني من كثير من المواقف التي لا يمكن معرفة عواقبها، هؤلاء الأشخاص رحمهم الله هم صديق والدي الوفي عبد الوهاب احمد العلي (أبو سعد) التاجر في سوق الشورجة، وحسين حبيب المهداوي صاحب محل بقالة في الكرادة، سبع قصور، واخ أكرم المهداوي.

تقديم

لقد قرّحت سنوات القلق السياسي، لا سيما في البلدان النامية، أنامل الأطفال قبل عيونهم، قهراً من دون اختيار، ولكن قليلاً من الأطفال سلكوا هذا الطريق مختارين بوعيهم المتقدّم، وإن لم تكن سنوات القهر قد نالت من عوائلهم، بالشكل الذي يجعلهم ينتهجون هذا السبيل، الصديق المفكّر الحر محمد حسين النجفي، واحد من هؤلاء المختارين، قرأ مبكراً بقلبه الساخن، وبعقله الهادئ محجّات السفر إلى منابع الحرية البعيدة، وإن كانت هذه المحجّات معمّدة بالمعاناة، حتى إن سياط السلطة الزمنية المتجبّرة الغاشمة، لم تقف حائلاً أمام ذلك الفتى المراهق، المؤمن بقدره إيمانه بانتمائه السياسي، وكأنه آخر حاملي لوائه، لاحقاً بكبار المناضلين الذين سبقوه للتضحية والفداء، متقدّماً الذين سيلحقون به.

لقد تطوّع إلى حمل رسالة سلام بصحبة الذين يكبرونه سناً، ولا يتقدّمون عليه إيماناً بحرية الإنسان وعيشه الرغيد، فاقتيد إلى المعتقل السياسي دون مراعاة عمره، عومل مثل ما عومل رفاقه الكبار، وعندما سنحت له فرصة مغادرة المعتقل بتدخل، متشفعين بحداثة سنه، قدّم مقاربة مغايرة تليق بمناضل صغير، يعلّم الكبار الثبات أمام غضبة السلطة، وقبضة السجّان.

كبر هذا الفتى وكبرت أحلامه معه في بناء وطن وسعادة شعب، حتى أضحى أستاذاً جامعياً في ظلّ سلطة حاكمة في الثوب ذاته، ولكن بعصا أغلظ، وقلب أشد قسوة، فهل بدأت تخبو أضواء أحلام يقظته، بعد أن بدأت تعادي الشوارعُ الشوارعَ، وتخشى البيوتُ البيوتَ، فيما ضاق أفق الحلم في أرجاء الكون؟ وكيف أضحت مسيرة مناضلين في الزمن القاسي، والروحُ تعتصرُ الروحَ بأنامل الخوف والتأمّل؟

اخترق المناضلون المديات، منهم من ذهب باحثاً عن ملاذ يبث أفكاره من هناك، يحمل مشعل الحرية والتحرر، مبتعدين عن إراقة

الدماء، ومنهم من سحقتهم آلة السلطة الشمولية سحقاً، عانقوا الموت مبتسمين ابتسامة العاشق لمعشوقته، مواجهين حرارة الموت وظلم الظالم، منتظرين ضوء الفجر وإن كان بعيداً.

نقرأ في (المناضل الصغير) للمفكّر الحر محمد حسين النجفي آلام شعب وآماله أفراداً وجماعات، بوصفه سرديّة تطرح أسئلة على الذات والآخر بالقدر الذي تجيب فيه عن الأسئلة القلقة، الكتاب مسيرة تاريخ.

الدكتور محمد عبدالرضا شياع
كاتب وأستاذ جامعي عراقي
الولايات المتحدة الأمريكية

مقدمة

مرَّت السنين الطوال علينا في الغربة المؤبَّدة، ولَمْ تستطعْ مَحْوَ ما حُفِرَ بذاكرتنا من أيَّام الطفولة والمراهقة والشباب في وطننا العزيز مهد الحضارات، أرض الرافدين، عراقنا وكلّ عزَّتنا. ذكرياتٌ حلوةٌ تخلّلتها ظروفٌ قاهرةٌ مُرَّة وصعبة. لقد عاش جيلُنا الذي اسميهِ جيل تموز 1958، مراحل مفصليَّة من تاريخ العراق المعاصر بإيجابيَّاته وسلبيَّاته، بانتعاشه وبكساده، بأيَّامه المشرقة وسنينهِ الحالكة.

ونظراً لترسُّخ بعض هذه الذكريات ذات المكنون السياسي والاعتبار الاجتماعي في مخيلتي، ولاعتقادي أنَّها جزءٌ من تاريخ جيلي ومُكوّنٌ من مكوِّنات تاريخ الشارع العراقي، وما حدثَ في الأزقة والمحلّات والمقاهي والبارات والأسواق والمدارس والجامعات والجوامع، إذن لا بدَّ من تدوينها ونشرها عن طريق وسائل النشر الحديثة، بأنواعها المتعددة. نعمْ، بدأتُ بكتابةِ الذكريات على شكل حتوتاتٍ صغيرة، وبعثتُها الى الأهل والأصدقاء كي يتعرَّفوا عليها. كانت ردودُ الفعل كلّها إيجابيَّة لدرجة أنَّ بعض الأصدقاء أصبح يُطالبني بالمزيد. تشجَّعتُ ووسعتُ دائرة نشر مقالاتي وقصصي مع بعض الصور التذكاريَّة في الفيس بوك وموقع الحوار المتمدن وموقع الأخبار الإلكتروني. كذلك بدأتُ إرسالها على الواتس آب والماسنجر وغيرها من عالم وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة.

ولكنْ، حقيقةُ الأمرِ أنَّ أكثر ما يهمّني هو الشباب داخل الوطن الأم. إذ من خلال محادثتي مع العديد من شباب الجيل الجديد الذين تتراوحُ أعمارُهم ما بين العشرين والأربعين سنة، وجدتُ أنَّ هناك نقصاً كبيراً في الذاكرة العراقيَّة لسنوات الستينات والسبعينات من القرن الماضي. ولحسن الحظ فإنَّه قد بدأتْ حملة واسعة من المعاصرين لمرحلتي وما سبقها وما تبعها بكتابة مذكرات أُعجبتُ بها كثيراً لمصداقيتها ولغزارة المعلومات التي تحتويها، أخصُّ بالذكر البعض

منها: "مُذكرات نصير الجادرجي"، و"ذكريات عراقيَّة للدكتور فاروق برتو"، و"أيَّام لا تُنسى لهمام عبد الغني المرّاني"، و"أسرار ثورة 14 تموز لإسماعيل العارف"، و"عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي لعزيز سباهي"، و"طوارق الليل لتوفيق الناشي وابتسام الرومي"، وغيرهم الكثير.

مذكَّراتي تختلفُ قليلاً عن الآخرين كونها ليستْ سرداً زمنيَّاً لحياتي وما جالَ فيها، وإنَّما أحداثٌ مختارةٌ ومنتقاةٌ لقيمتها الحضاريَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة، والتي أرجو أنْ يُستخلصُ منها بعضُ الدروس والعبر. وهي بالتأكيد ليستْ مذكّرات وزير أو رئيس دولة أو سياسي قيادي بمعنى الكلمة، وإنَّما هي ذكريات ومذكّرات شاهد عيان على الأحداث لأنَّه عاشها وشارك فيها وكان على تماسٍ مباشرٍ بها في الشارع والمحلة والمدرسة. فهي - بذلك - سجلُ مواطنٍ عاديٍّ من عائلة بسيطة ومتواضعة، إلّا أنَّه عاش في خضم ظروفٍ مفصليَّة متقلّبة وأحداث سياسيَّة مربكة في تغيّرها، ومأساويَّة في نتائجها .

العديدُ من الذكريات والأحداث تخصُّ أناساً آخرين اضطرُّ لذكر أسمائهم، لا للتشهير ولا للتنكيل ولا للذم ولا للمدح أو التقرُّب، وإنَّما كي تكتملَ الصورة لدى القارئ وتثبتْ مصداقيتُها. أرجو المعذرة مقدّماً إذا أخطأتُ بحقِّ أحد، علماً أنّني بذلتُ جهدي للبحث من بين الإخوة والأصدقاء الذين مازالوا على قيد الحياة على تدقيق المعلومات والأسماء والتواريخ متمنيَّاً لمن يقرؤها ويودُّ تصحيحها إرسال المعلومات مباشرةً لي عن طريق الإيميل أدناه. وأرجو أن نكون قد وفقنا لخدمة المواطن والوطن. ولا بدَّ لي من أن أذكر أنَّ ما شاهدتُهُ وعشتُهُ يمثّل عينة عشوائيَّة لمئات لا بل الآلاف مما مرَّ به الشبابُ من جيلي. وللأسف أنَّها حدثتْ في فترات الصمت القاتل الطويل الذي لا يستطيع حتى الأصدقاء التحدّث عنه فيما بينهم. شبابٌ أُقْتُلُعُوا من فوق الأرض ليختفُوا في المجهول المعلوم وفي دهاليز سلاطين القهر والظلام.

الهدفُ المرْتَجَى من هذا الكتاب هو للتذكير بجرائم مهولة حدثتْ ضدَ الإنسانيَّة في العراق، وفي كلِّ العهود من دون استثناء. وللتذكير بالتضحيات الجِسام التي قدّمتها الأجيالُ والتي لا يُدركها جيلُ ما بعد الألفين. أنحني بخشوعٍ وإجلالٍ للشباب والشابات الذين اِنْفَرَدَ بهم الجلّادون في الليالي المظلمة والغرف الآسنة والقسوة السّاديَّة. شبابٌ معظمهم جنودٌ مجهولون لم يسمعْ عنهم أحد. لا يعرفْ بهم أحد. لم يكتبْ عنهم أحد. لم ينشرْ صورهم أحد. أكتب هذا الكتاب كي أحُثَّ الآخرينَ على البحث والتدقيق عن جرائم الفترة التي يعتقد الكثيرون أنَّها كانت العصر الذهبي!

محمد حسين النجفي
31 آذار 2022
malnajafi@aol.com

الطفولة السعيدة

النجف الأشرف

وُلِدَ والدي وترعرعَ في مدينة النجف الأشرف، محلّة العمارة داخل سور النجف القديم. توفيتْ والدتُهُ وهو في عمر صغير. أخرجه والده من المدرسة وهو في الصف الثالث الابتدائي بعد نصيحةٍ لوالده من قبل أحد المعمَّمين. اتَّجهَ والدي بعد ذلك للتجارة، واستطاع وهو شابٌ صغيرٌ أنْ يفتتحَ له دكاناً (متجراً) مجاوراً لمقهى الحاج حسين القهواتي وسط السوق الكبير، وهو المركز التجاري الرئيس في النجف الأشرف. وكانت تجارتُه في بيع الأدوات المنزليَّة مثل الصحون والملاعق والفوانيس والطبّاخات والبريمزات والإستكانات والقواري. كان والدي كثيرَ السفر والتّرحال خاصةً ما بين النجف وبغداد، لذلك استعان بخالي مهدي ليكون مُساعداً له في ذلك المحل الصغير بمساحته، الكبير بنشاطه التجاري. وما زلتُ احتفظ بذاكرة واضحة لذلك المحل، وخالي مهدي يعملُ فيه ولم يكنْ عمري سوى ثلاث أو أربع سنوات.

أحبَّ والدي خالَهُ الحاج رضا عبد الحسين الندَّاف كثيراً، ولذلك تزوَّج ابنته الجميلة "فخريّة" وهي في مقتبل شبابها. واستأجرَ لها القسم البرَّاني (جناح الضيوف) من بيت الحاج عبد ششتر الأنصاري، في جادة (شارع) الكوفة في النجف. وفي هذا البيت، وَلَدَتْ ابنها البكر الذي سُميَّ في بداية الأمر بـ "ناجح"؛ وذلك لأنَّ الولادة كانتْ عسيرةً جدّاً وكان نجاحها معجزة في ذلك الوقت. وبَقِيَ اسمي "ناجح" لحين دخولي المدرسة وغُيِّرَ اسمي ليكون "محمد حسين"؛ لأنَّ اسم أبي "علي" ويجب أن يكون "أبو حسين"، ولأنِّي وُلدتُ في أيّام مولد الرسول (ص) من ذلك العام، فسُمِّيتُ "محمد حسين"، وخير الأسماء ما حُمِّدَ وعُبِّدْ. وظلَّ العديد من أقاربنا ينادونني بناجح، ومنهم جدّي الحاج علي أصغر لحين وفاته عام 1960. كانتْ نسبة وفيات الأطفال في تلك الأيَّام عالية جدًّا، وكان هناك خوفٌ شديدٌ من العين الشريرة والحسد. لذلك ثقبوا أذنيَّ وألبسوني التراجي (حَلَق)، كي يظنَّ

الغرباء أنّني بنتٌ ولستُ ولداً. ولم يكن الناس على ما يبدو يحسدون الأمهات على أطفالهن الإناث.

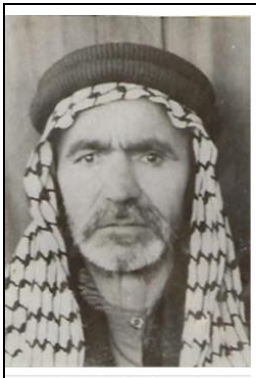

الحاج رضا النداف 1952

محمد حسين "ناجح" 1952

علي النجفي 1952

الهجرة الى بغداد

انتقل والدي كليًّا الى بغداد عام 1949، وكان أول بيت نسكنُهُ في محلة "الدهَّانة" مقابلاً لجامع المصلوب، ومجاوراً لبيت الحاج حسن الأمين الدقّاق. وهي المحلّة التي تقع خلف جامع الخلفاء في شارع الجمهوريَّة حاليًّا. وقد وُلِدَ أخي "عصام" في هذا البيت الذي كان بيتاً صغيراً جدّاً في قلب مدينة بغداد، وقريباً على سوق الشورجة المركز التجاري الأساسي في بغداد. وفي هذا البيت بالذات توطّدت العلاقات بين والدتي ونساء بيت الدقّاق، ومنهم زوجة الحاج حسن (أم جواد) وسميحة (أم حكمت) وفاطمة وسنيَّة عمَّات صديقي "حكمت". وفي عام 1950/ 1951 انتقلنا الى بيت يملكه عبد الباقي الطحَّان، صديق أبي ووالد شريكه محمد علي الطحَّان الذي توفيَ مبكرًا بمرض السل. وكان هذا البيت الكبير نسبيًّاً يقع في وسط منطقة الكرادة الشرقية التي كانت تعدُّ من ضواحي بغداد الراقية، في وسط شارع الكنيسة في محلة البوليسخانة. بيتٌ كبيرٌ استأجره أبي كي يستقدمَ جدّي الحاج رضا وجميع أفراد عائلته من مدينة الكوفة للسكن في بغداد. وكان خالي مهدي قد تزوَّج عمَّتي مريم، وخالي هادي تزوَّج عمَّتي نرجس. وبقيت هاتان العائلتان "الطحَّان والدقَّاق" من أقرب العائلات إلينا. عائلة الدقّاق ومنهم صديق العمر "حكمت"، وعائلة الطحَّان ومنهم صديق الطفولة والشباب "رياض".

خالي مهدي وخالي كريم ومحمد حسين في سطح بيت الطحان في شارع الكنيسة بوليسخانة كرادة عام 1952

وُلِدَ أخي رعد، وصالح ابن خالي مهدي، وناهدة بنت خالي هادي في بيت الطحَّان ما بين عام 1951 و1952. كذلك في هذا البيت تمَّ الاحتفال بختان كلٍّ من خالي محسن وخالي كريم وإخوتي عصام ورعد. وكان "المطهّرجي" من الطائفة اليهوديَّة الذين يمتهنون ذلك بحرفيَّة عالية. كان هذا الشارع ترابيَّاً وغير مبلَّطٍ بالأسفلت، ولكن أثناء سُكنانا هناك أتذكّر تمَّ تبليط الشارع يدويَّاً، إذ يستخدم العمال في تسوية الاسفلت أدوات مُماثلة لعمل الكليجة (شوبك)، ولكن أكبر منها بكثير، أسطوانيَّة الشكل ذات يدين وكان الاسفلت تحت أنوف العمال مباشرة. وما زلتُ اشتمُّ رائحة الاسفلت وأنا أكتبُ هذه السطور، حيث كان الاسفلت يُذاب في عربة تحتها مشعلٌ مدوٍّ (بريمز).

كان في نهاية الشارع من الجهة الأخرى من الشارع الرئيس "كرادة داخل" نادٍ رياضيٌّ تُمارسُ به ألعابُ الزور خانة والمصارعة. وكنَّا نذهبُ كي نشاهدهم يتدرَّبون ويتبارون، وكان منهم المصارع الدولي

المعروف "عباس الديك" الذي سُمِّيَ شارع بِاسمه لاحقاً في منطقة "البو شجاع/ الكرادة الشرقيّة". وكان أقرب الجيران إلينا البيت المقابل لنا وهو بيت أب وأم محمود (عبد الحسين حسن). وكان من أبنائهم محمود وهو أكبرهم، مجيد وعيسى وصالح وثلاث بنات. شاءت الظروف بعد عشرين عاماً من ذلك التاريخ أن يصبح صالح عبد الحسين حسن زميلاً لي في الجامعة المستنصريَّة، ومن بين أقرب الأصدقاء لحين مغادرتي الوطن عام 1979. كانت العلاقات في الشارع آنذاك بين النساء فقط، أما الرجالُ فكان أصدقاؤهم من زملاء العمل. وعادةً تتزاور النساء أثناء النهار بغياب الرجال من البيوت، بينما يلتقي الرجالُ مساءً في المقاهي أو الجوامع والحسينيَّات. وبعضهم في نهاية الليل في الحانات والبارات والملاهي.

الكرادة الشرقية

تعدُّ الكرادة الشرقيَّة من بين أهمِّ ضواحي العاصمة بغداد من حيث تعداد النفوس والمساحة الجغرافية والتنوّع السكّاني في أعوام الخمسينات والستينات والسبعينات من القرن العشرين. إنَّ أهمَّ ما يُميِّزها هو كونها شبه جزيرة يلتفُّ حولها نهر دجلة العظيم من ثلاث جهات. كذلك كورنيش شارع أبي نواس ومقاهيه الجميلة والسمك المسقوف وبهجة وشعبيَّة الكرادة داخل، وروعة ونظافة الكرادة خارج، وتحرّر وحداثة عرصات الهنديَّة، وأناقة وهدوء منطقة المسبح.

كانت الكرادة الشرقيَّة تحتوي مجتمعاتٍ راقيةً ومجتمعاتٍ متدنيةً في آنٍ واحد. تحتوي على العديد من الجوامع والحسينيَّات ومنها حسينيَّة التميمي وحسينيَّة مباركة وحسينيَّة "عبد الرسول علي" التي كان الشيخ الوائلي يَؤمُهَا في العشرة الأيّام الأولى من شهر محرَّم الحرام، وعشرة أيّام من شهر رمضان. كان شارع أبي نواس الذي يبدأ

من الباب الشرقي وينتهي بشارع الكنيسة (البوليسخانة) آنذاك قبل أن تتمَّ تكملتُهُ ليصل الى الجسر المعلّق ثم ليصل الى الجادريَّة. كان شارع أبي نواس مركزاً سياحيَّاً وترفيهيَّاً لعموم أهالي بغداد، ومركزاً سياحيَّاً لزوّار بغداد من المحافظات الأخرى أو ضيوف العراق الأجانب، حيث تنتشر على امتداده العديد من الفنادق والمطاعم والمقاهي ومحال الشرب التي يرتادُها الرجالُ فقط في ذلك الحين، ومنها مقهى الحدباء لصاحبها "زناد" الذي كان مقهاه سابقاً في البتاويين قرب سينما أطلس حاليًّا، ولديه مقهى في نهاية سوق التجار وعلى ضفاف نهر دجلة. وفي منتصف الستينات افتتحت أمانة العاصمة ثلاثة مقاهٍ جميلة جدًّاً هي ثلاثيَّة مقاهي الصفراء والخضراء والحمراء.

كذلك كانت الكرّادة مركزاً للعديد من المثقفين والسياسيين المعروفين، ومنهم عبد الوهاب مرجان وزير ورئيس وزراء في العهد الملكي، والدكتور ابراهيم كبّة وزير الاقتصاد في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم والذي سُمِّيَ الشارعُ الذي كان يسكنه بِاسم شارع الوزير. كذلك سكن الكرّادة شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري، ومؤرخ الوزارات العراقيَّة الكاتب السيد عبد الرزاق الحسني، وأستاذ القانون الدولي الدكتور محمد علي الدقّاق، والدكتور الجرَّاح عبد المجيد حسين مؤسس مستشفى عبد المجيد حسين، والتجار المعروفون عبد الرسول علي ورضا علوان وجابر مهدي البزّاز، وبيت الخضيري، وعائلة آل عيسى. يوجد في الكرادة العديد من عيادات الأطباء المعروفين، ومنهم صاحب علش وصادق ابو التمن وعليم حسون. كذلك العديد من المستشفيات ذات السمعة العالية مثل مستشفى الراهبات في منطقة "إرخيته" ومستشفى الإمام في منطقة "أبو اقلام" ومستشفى عبد المجيد حسين في "البو شجاع".

وفي تلك الأعوام المفصليَّة في بداية الستينات بدأت الأحداث في العراق تأخذ منحىً معاكساً. إذ تحوَّل الصراع بين الأفكار والبدائل

السياسيَّة الى صراعات دمويَّة سُفِكَتْ فيها دماء الشباب السياسيين المتخاصمين، وكانت حصّة الأسد في الضحايا من نصيب اليساريين، خاصةً من سكنة مدينة الموصل، مما جعل سفك الدماء بشكلٍ جماعيٍّ بعد حركة 8 شباط 1963 المشؤومة، أمراً استمراريَّاً لما حدث من قبل. وفي الوقت نفسه بدأت الدول الخارجيَّة تتدخلُ بشؤون العراق، وخاصة الجمهوريّة العربيّة المتّحدة (مصر وسوريا)، والدول الغربيّة متمثلةً ببريطانيا وأميركا. إنَّ ثورة الرابع عشر من تموز عام 1958، لم تكنْ انقلاباً عسكريَّاً لتغيير من هُم في سدّة الحكم فقط، وإنّما كانتْ حركة ثوريَّة تنشد التغيير الجذري في الشؤون السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة.

اتّخذت الثورة خطواتٍ ضربتْ بها مراكز نفوذ تقليديَّة في الداخل، وحجَّمتْ مصالح الشركات الأجنبيَّة المرتبطة بالخارج. ومن بين هذه الخطوات وأهمُّها كان قانون الإصلاح الزراعي، وقانون الأحوال الشخصيَّة. وهذان القانونان ألحقا الضرر بمصالح ونفوذ رجال الدين الذين يُموَّلون من قبل رؤساء العشائر، وهم في معظم الأحيان مُلاكٌ أكبر وأخصب الأراضي الزراعيَّة، التي استولوا عليها أثناء حقبة الدولة العثمانيَّة والعهد الملكي. كذلك فعل قانون الأحوال الشخصيَّة، إذ نظَّمَ هذا القانون علاقات الزواج والطلاق والإرث، بما يضمن حقوقاً أفضل للمرأة في الإرث، ويرفع من شأن دورها في الزواج والطلاق.

وبذلك انقسمَ الشعبُ العراقيُّ بين مؤيّد للزعيم وبين معادٍ له. يضمُّ الفريق الأول في اعتقادي، ما لا يقل عن 80 % من الشعب العراقي، خاصةً الفقراء والعمال والفلاحين والكسبة، وسياسيًّا الشيوعيين وقسماً من الحزب الوطني الديمقراطي. ويضمُّ الفريق الثاني البعثيين والناصريين، وتضامن معهم بعض رجال الدين والإقطاعيين الذين تضرررتْ مصالحهم الشخصيَّة، مع إسنادٍ خارجيٍّ قويٍّ جدَّاً. وبذلك ابتدأتْ سلسلة من المؤامرات الواحدة تلو الأخرى. ابتدأتْ بانشقاق عبد السلام عارف ومطالبته بالوحدة الفوريَّة مع مصر وسوريا بقيادة

جمال عبد الناصر من دون قيد أو شرط، ثمَّ حركة السياسي المخضرم رشيد عالي الكيلاني، ثمَّ حركة الشوَّاف في الموصل والأحداث التي تلتها، وأحداث كركوك الدمويَّة بين الأكراد والتركمان، ومحاولة اغتيال الزعيم في شارع الرشيد. كل ذلك وغيره حدثَ في الخمسة عشر شهراً الأولى من عمر الثورة، مما أخَّرَ مسيرة الثورة في بنيان مؤسساتها المدنيَّة للتهيئة لتأسيس السلطة السياسيَّة على أسسٍ برلمانيَّة ديمقراطيَّة.

كانتْ لهذه الأحداث أبعادٌ سياسيَّة واجتماعيَّة أثّرتْ على علاقة الجيران بعضهم ببعض، وعلاقات الصداقة في المحلّة وفي المدرسة. وبدأ الكلُّ يُفَكِّرُ أين موقعُهُ، وأين موقعُ الجيران والأقارب والأصدقاء من ذلك. وبدأتْ تتركَّز معظم الحوارات في الدوائر الحكوميَّة، والمتاجر التجاريَّة، والمدارس والجامعات، وفي البيوت حول الشؤون السياسيَّة. وأدى ذلك إلى تحول بعض الصداقات إلى عداوات، وإلى انفضاض الكثير من المجالس الاجتماعيَّة بالصياح والغضب وأحياناً الاشتباك بالأيدي. هذا يُدافع عن الزعيم، وذلك يحبُّ جمال عبد الناصر ويريد الوحدة مع مصر. وكانت محاكمات المهداوي (محكمة الشعب الخاصة) تؤجِّجُ هذا الصراع، لأنَّها كانت تُنقل حيَّة عبر شاشات التلفزيون الذي كان الجميع يلتصقون به من أصغر فرد في العائلة حتى أكبرها. وأتذكّر جيداً أن أبي اشترى التلفزيون وأدخله في بيتنا، كي يشاهد محكمة الشعب التي ابتدأتْ بمحاكمة رجال العهد المباد (العهد الملكي) أمثال بهجت العطيّة وسعيد قزّاز. ثمَّ محاكمة عبد السلام عارف، وكانت أشهرها محاكمة ناظم الطبقجلي، ومن ثمّ المشتركين بمحاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم في شارع الرشيد.

أدى انشطار الشارع العراقي الى قسمين رئيسين الأول الزعيم والشيوعيون من جهة، والثاني البعثيون والقوميون من جهة أخرى، إلى مصدامات دمويَّة، ومنها حركة الشوَّاف في الموصل، ثم أحداث

كركوك في يوم الاحتفال الأول بذكرى 14 تموز 1959، مما أدى إلى إراقة الدماء بين الأكراد والتركمان والتي استغلتها القوى المعادية للثورة وتلبيسها برقبة الشيوعيين. وانعكس ذلك في خطاب الزعيم حينما افتتح كنيسة مار يوسف في يوم 17 تموز 1959 في الكرادة الشرقيَّة، وألقى كلمة أبدى فيها غضبه على الشيوعيين والأكراد وسمَّاهم بـ "الفوضويّون". استغلت أجهزة الأمن والمخابرات التي كان مُسيطراً عليها من القوى المناوئة للثورة، وقامت بحملة اعتقالات واسعة، في الموصل وكركوك وبغداد، وعلى وجه الخصوص للقيادات العماليَّة والفلاحيَّة والناشطين المعروفين.

بعد هذا الخطاب انشطرَ العراقُ الى ثلاثة أقسام: الأول، الزعيم والقاسميون والمؤيدون له وهم عموم الناس، وخصوصاً الفقراء الذين رعاهم ورفع من مستواهم المعيشي والاجتماعي، القسم الآخر هم الشيوعيون الذين أبعدهم الزعيم عن دائرته وأبعدهم عن المناصب الحسَّاسة في أجهزة الدولة وخاصة الجيش، إلّا أنَّهم استمروا في ولائهم لثورة تموز والدفاع عن مكاسبها. أما القسم الثالث فهم البعثيون والقوميون الذين أخذوا بتقوية قواهم بإسناد من الجمهوريَّة العربيَّة المتَّحدة (مصر وسوريا) والتعاون مع القوى التي تضرّرتْ من قوانين الثورة، وهم جماعة العهد الملكي والإقطاعيون والأغوات الأكراد المتضرّرون من قانون الإصلاح الزراعي، ورجال الدين الذين سحب قانون الأحوال الشخصيَّة البساط من تحت أقدامهم، عزَّزَت ذلك فتوى الراحل السيد محسن الحكيم من أنَّ "الشيوعيَّة كفرٌ وإلحاد".

شارع الهندي

يُعدُّ شارع الهندي من بين الشوارع المهمّة في قلب الكرّادة الشرقيّة، حيث يقع في منطقة البو جمعة ما بين منطقة الهويدي والبوليس خانة. قضينا في شارع الهندي أحلى أيَّام الطفولة والحداثة والمراهقة

من عام 1954 لغاية عام 1961، سبعة أعوام مهمّة في ترعرع ونمو شخصيَّة أيِّ إنسان ورسم أبعاد توجهاته في الحياة. لمْ يكنْ شارع الهندي بالنسبة لي وللآخرين مجرَّد شارع سكني، وإنّما كان حارة (محلّة) متكاملة وكأنَّها زقاقٌ من أزقة بغداد القديمة التي يتلاحم قاطنوها مع بعضهم البعض بشكل عشائري. نعمْ، كانت النساء تعرف النساء والبنات صديقات البنات، والأولاد دائماً في الشارع يلعبون كل الألعاب الموسميَّة مثل الطيّارات والدعبل، وألعاب على مدار السنة، منها مثل كرة القدم وركوب الدراجات الهوائيَّة.كان شارع الهندي قريتنا ومدينتنا لا بل وطننا الذي نعتزُّ به.

ومن بين أهمِّ السكان القاطنين تلك الأيّام في شارع الهندي الذين تعرّفتُ عليهم، بيت الحاج حسن الأمين الدقّاق ومنهم صديق العمر حكمت محمد جواد الدقّاق، وبيت الكاتب والمؤرخ العراقي السيد عبد الرزاق الحسني ومن أبنائه قاسم وأمين وأنور والصديق طارق، وزملاء الدراسة في مدرسة الحكمة الابتدائيَّة سليم وأحلام، وبيت مهدي الطالب وأبنائه سلمان وسالم، والأصدقاء خميس وصباح وحامد، وبيت أمير رومايا ومنهم الصديق هلال حنا، وبيت المحامي عبد الحليم القيم ومنهم الصديق علي القيم، وبيت السيد عبد الأمير السيد صالح النجفي ومنهم الصديقان زكي وسعد، وبيت عبد الأمير الجميلي وعبد الغني الجميلي وأبنائه فؤاد وإياد (وقد أعْدِمَ ثلاثتُهم الأب والأبناء في عام 1979/ 1980)، وبيت مهدي الطالب من أوائل سكنة شارع الهندي، وبيت عبد علي الطحّان ومنهم الإخوة سعيد وسمير أبناء الخياطة حُسنيَّة السوريَّة الأصل.

كانتْ معظم الألعاب التي نمارسها في الشارع موسميَّة. ففي الصيف يبدأ موسم الطيَّارات الورقيَّة من السطوح، وكنّا أحياناً نعلّق في الخيط فوانيس ورقيَّة بداخلها شمعة كي تضيء في الليل. وأحياناً نغلّف الخيط بطحين البامية اليابسة حيث نطحن البامية اليابسة ونمررها على الخيط وننشر الخيط حتى ييبس كي يتحوّل الخيط حادَّاً كالسكين

إذا ما تقاطع مع خيط آخر لشخص غريم يقطعه ويفقد طيارته الورقيَّة. وهناك موسم "المحية" وهو موسم يستخدم به البوتاز (مفرقعات) نصنعها في البيوت وهي ممنوعة قانونيًّا، ولكن الكل يستعملها. نشتري المادة المتفجّرة وهي مسحوقٌ مثل الكركم من "حسن علو" وهو بقّال في منطقة سبع قصور. ونجمع حصىً في خرقة قماش نضع فيها عدّة حصوات وننشر عليها الزرنيخ (المسحوق القابل للانفجار) ونشدّها بخيط. وعند رميها في الشارع على أرض صلبة تنفجر وتحدث صوتاً مدويّاً. ولعبة الدعبل من أكثر الألعاب ديمومة وعلى مدار السنة. وهناك لعبة المرصع والجعاب والصنطرة توتو، ولعبة البوزة وهي خضُّ بطل الكوكا كولا وفتحه والمراهنة الى أي حدٍّ تصل بوزة الكوكا المنسابة من القنينة، وغيرها الكثير من الألعاب. وحينما وصلنا عمر الأحداث كانت لعبة كرة القدم من أهمها، وكنا نتابع الفرق الرياضيّة وخاصة منتخبي آليّات الشرطة ومنتخب القوة الجويّة ومنتخب الزوراء، ونذهب لمشاهدتها في ساحة الشرطة قرب القصر الأبيض وساحة الكشَّافة في الأعظميَّة. ومن بين المشهورين في كرة القدم آنذاك كان جمولي (جميل عباس) وعمو بابا وشدراك ويورا وقاسم زويّة وحامي الهدف لطيف شندل وحامد فوزي والمعلّق الرياضي المشهور مؤيد البدري.

العائلات التي تحدثت عنها وأولهم السيد عبد الرزاق الحسني كاتب وأديب ومؤرخ أساسي للوزارات العراقيّة. كان يخرج من بيته صباحاً وبيده كتاب يقرؤه من خلال نظاراته الطبيَّة الصغيرة التي يضعها على نهاية أنفه، والتي كنتُ استغرب كيف أنَّها لا تسقط من وجهه إلى الأرض. فهو يمشي ويقرأ الى أن يصل ناصية الشارع العام من دون النظر يميناً أو شمالاً ولا يُسلِّم على هذا أو ذاك، وأعتقد أنَّ ذلك كان مقصوداً. ومن هناك يستخدم سيارات الأجرة (النفرات) للوصول الى ديوان رئاسة الوزراء حيث مقر عمله. لم يكنْ اجتماعيًّا مع جيرانه، إلّا أنَّه في فصل الربيع كان يبعث باقة صغيرة (شدّة) ورد جوري "ياسمين" بيد ابنته أحلام للجيران في الصباح. ظاهرة جميلة لم تكنْ

شائعة ولم يقلّدها أيٌّ من بقية الجيران. لم تكنْ علاقته جيدة مع جاره مقابل بيته وهو مهدي الطالب (أبو سلمان)، وهو شخصيّة محترمة جدًّاً في محلّتنا. كان أبو سلمان يملك عدة شاحنات كبيرة للنقل، ضوضاؤها صاخبة جدًّا. لم يعتقد السيد الحسني أن شارعنا كان مناسباً كموقف لمثل هذه الشاحنات.

أما الحاج حسن الدقّاق وعائلته فهم من أقدم العلاقات العائليَّة لعائلتنا من قبل الوالد والوالدة. علاقة الوالد معهم تمتدُّ الى ما قبل نزوحنا الى بغداد من النجف الأشرف. وكانوا أول جار لنا في بغداد محلة الدهّانة مقابل جامع المصلوب. وكان من كبار تجار المواد الغذائيّة التموينيّة مثل الرز والحبوب ولديه خان أو "علوة" في علاوي الشورجة قرب شارع الكفاح، يساعده في ذلك أبناؤه محمد جواد (أبو حكمت) وعباس (أبو حيدر). كانوا عائلة كبيرة وكان الصديق حكمت وأنا متلازمين دائماً واشتركنا في كل الألعاب ومارسنا كلَّ المسموحات والممنوعات معاً، وتعرّضنا للمساءلة والضغوط والاضطهاد كأنَّنا توأم. كنّا (حكمت وأنا) لدينا معلومات واسعة عمّا يحدث في شوارع الكرّادة سواء المعلنة منها والمخفيَّة. من كان صديق من؟، ومن هي صديقة فلان؟، ومن هو صديق فلانة؟، أيُّ من المعلمين كان من الشاذّين جنسيّاً؟، من هم الشقاوات (الفتوة) في المنطقة؟، من هم الذين يديرون محلات "التل خانه"، (وهي مقاهي شعبيّة في النهار تغلق وتتحول بعد منتصف الليل الى نشاطات ممنوعة من بينها لعب القمار). كل تلك المعلومات كانت تصل إلينا ونحن مازلنا في بداية عمر المراهقة، إلّا أنّها خلقت لدينا وعياً شارعيًّاً لعب دوراً كبيراً في حمايتنا من الاعتداءات التي كان يتعرّض لها الأطفال والأحداث، والتي لا تُعدّ ولا تُحصى لدرجة أنّها كانت شائعة لتكون واقعاً مريراً تتستر عليه العائلات لجسامة آثار تداعياته على نفسيّة الضحيّة وسمعة العائلة. كنّا نرى ونعلم بتعرّض بعض أصدقائنا لهذه الممارسات، وكيف يؤثر ذلك على سلوكهم الفردي وانكسارهم النفسي وانسحابهم من الاختلاط الطبيعي مع الآخرين.

كان في رأس (ناصية) شارع الهندي كرادة داخل (على الجوَّة) عيادة للدكتور صادق ابو التمن (والد الصديق لاحقاً لؤي)، تقابلها على الجانب الآخر عيادة الدكتور صاحب علش. أما على يسار مقدمة شارع الهندي فكان هناك نوعان من المحال، محال نظاميَّة دائميَّة مثل بقالة عبد الحسن، وبسطات غير نظاميَّة لبياعي الفواكه والخضر الذين يفتحون صباحاً ويغلقون مساءً، إلّا أنَّهم لا متاجرَ ثابتة لهم ومنهم "ببيبّة" وأبناؤها سالم وصديقنا نعمة، وكذلك الإخوة هادي ووادي، وغيرهم كثيرون. وعلى يمين شارع الهندي باتجاه الباب الشرقي دكان لصاحبه ابراهيم قربان، الذي كان مظهره يدلّ على أنّه معلّم او موظّف مصرفي عن كونه صاحب محل بقالة. بينما على مسافة منه قرب موقف باص الأمانة كان محل حميد العبيدي (الملقّب بحميد قنبل) الذي كان ملائمًا أكثر لمصلحته. وبينهما كان المحل الكبير الواسع لحلويات "الحاج جواد الشكرجي" وهو من الرموز التجاريّة المعروفة لصنع وتوزيع الحلويات في بغداد والذي يمتلك فروعاً عديدة ومتميزة، والذي يضع صورة كبيرة له بملابسه التقليديَّة (صاية وكشيده) في وسط المحل.

كان شارع الهندي بالنسبة لي مدرسة الحياة التي بنيتُ فيها معالم شخصيتي وتوجّهي في الحياة. في هذا الشارع تنبّهتُ سياسيَّاً لما يدور حولي وكوّنتُ توجّهاً منحازاً لأفكار ظلّتْ عالقة معي طول العمر. وفي هذا الشارع بدأتُ مبكراً في قراءات ثقافيَّة لم يتسع للغير الاهتمام بها. قرأتُ لعلي الوردي "وعاظ السلاطين" و"مهزلة العقل البشري"، وقرأتُ لجورج جرداق "علي صوت العدالة الإنسانيَّة". وفي هذا الشارع تعرّفتُ على الشيخ أحمد الوائلي حينما كان في عزِّ شبابه. وفي هذا الشارع بدأتُ العمل مع والدي في الشورجة وتعلّمتُ أساسيات وأخلاقيات التجارة. وفي هذا الشارع خفق قلبي لعلاقات عاطفيَّة منها الرومانسي البريء ومنها غير البريء. وفي هذا الشارع التزمتُ ونشطتُ سياسيَّاً، وعاصرتُ أحداثاً سياسيَّة جِساماً مثل ثورة 14 تموز عام

1958، وحركة الشوّاف في الموصل، ومحاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم في شارع الرشيد.

الثورة والزعيم

فتحتْ والدتي الراديو كعادتها صباح كلَّ يوم، وإذا به يعزف الموسيقى العسكريَّة، بدلاً مما هو معتاد عليه من أغاني فيروز الصباحيَّة. وكان ذلك في صباح يوم الاثنين المصادف الرابع عشر من تموز من عام 1958، وكان المذيع الذي عرفنا بعد ذلك أنّه العقيد عبد السلام عارف، يقرأ البيان رقم (1) متحدثاً عن أنَّ القوات المسلحة الوطنيَّة قد أطاحت بالحكم الملكي، وأنَّه تمَّ إعلان تأسيس الجمهوريَّة العراقيَّة. وكانت البيانات تُقرأ من قبل عبد السلام عارف، إلّا أنَّها صادرة وموقعة من قبل الزعيم الركن عبد الكريم قاسم باعتباره القائد العام للقوات المسلحة "الوطنيَّة". وقد استخدمت كلمة "الوطنيَّة" لتميّزها عن بقية قطعات الجيش ولتفرز القطعات العسكريَّة الموالية للثورة عن غيرها. وعند سماع ذلك قال أبي إنَّها إذاعة سريَّة للمعارضة وسرعان ما ستتوقف عن البث، ويبدو أنَّ هناك حالات مماثلة حدثت بالسابق مازالت عالقة في ذاكرته.

وكالعادة بدأنا أبي وأنا نتهيَّأ للذهاب الى سوق الشورجة للعمل وكأنّه يوم عادي جدّاً. وركبنا تكسي النفرات (سيرفيس) والناس تتحدث عن قيام انقلاب عسكري. والإذاعة مازالت تبث الموسيقى العسكريَّة والأناشيد الوطنيَّة الحماسيَّة. ووصلنا لساحة الوثبة، وإذا بالمظاهرات المؤيِّدة للثورة في وسط الشارع تهتف بسقوط العائلة الهاشميَّة وبحياة الجمهوريَّة العراقيَّة. وجاءت مظاهرة المدرسة الجعفريَّة التي كانت من بين أنشط المدارس في الممارسات السياسيَّة في بغداد، حاملة سجادة صغيرة بحجم سجادة الصلاة وعليها صورة جمال عبد الناصر، الذي كان يُعتبر رمزاً قوميَّاً تحرريَّاً ضد الاستعمار،

وكان المرحوم خالي محسن وسطهم. فطلبت إذناً من أبي بالمشاركة وكان عمري حينها لا يتجاوز الأحد عشر عاماً في العطلة الصيفيَّة بين الخامس والسادس الابتدائي. وافق أبي على مشاركتي لأنَّه أصبح واثقاً من نجاح الثورة على ما يبدو، واستمرينا الى الباب الشرقي وبدأت الطائرات العسكريَّة تُحلّق في الجو والراديو يعلن منع التجول. وكان أن رأيت واجهة استوديو المصور المشهور أرشاك الزجاجيَّة مكسورة، وذلك لوجود صور للملك فيصل الثاني وبعض شخصيات العهد الملكي في واجهة الاستوديو الزجاجيَّة. وأتذكّر من بين الصور كانت صورة لابن وبنت سلطان أمين كرماشه مدير شرطة بغداد ونسيب بهجت العطية مدير الأمن العام.

لقد كان لهذا اليوم أثر عميق في نفسي ربطني مع الثورة والزعيم وما تمثله من قيم في الوطنيَّة والمساواة والعدالة الاجتماعية .دخل العراق بعدها في أيَّام وأسابيع من الفرحة الدائمة. ولكن تخلل ذلك ما سمعنا به لاحقاً بأنَّ العائلة المالكة قد أبيدت جميعها وأنَّ الوصي عبد الإله ونوري السعيد قد جرى سحلهما في الشوارع من قبل غوغاء الأحداث الذين يُفسدون الأفراح دائما.

أصبح الجيش العراقي محبوباً جدّاً من قبل الجماهير لأنَّه أُعتبر

المحرر من الاستعمار البريطاني. وكانت قطعات من الجيش منتشرة في المناطق الحسَّاسة في بغداد قرب الجسور والساحات والمصارف والدوائر الحكوميَّة. وكان الناس يبادرون لتحية الجنود والضباط ويصافحونهم. حتى أنَّ النساء وخاصة الكبيرات في السنِّ كُنَّ يُحيّنهم ويقبلنَّ جباههم بحرارة نادرة.

بعد ذلك توالت الأحداث وبدأت الثورة تُشرع قوانين ثوريَّة، غيَّرت من الحالة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة لعموم العراقيين. وكان كل بيان يصدر من الزعيم يعدُّ مكسباً وطنيَّاً للشعب. حيث أُطلق سراح جميع

السجناء ليس السياسيين فقط وإنّما السجناء العاديون أيضاً، وصدر قانون الإصلاح الزراعي رقم (30) لسنة 1958 الذي أعاد توزيع الأراضي لمن يزرعها. وصدر قانون الأحوال الشخصيَّة رقم (188) لسنة 1959 الذي رفع من مكانة المرأة في المجتمع ومنحها الحق في قرارات الزواج والطلاق والإرث. وعُقدت الاتفاقيّة الاقتصاديّة والفنيّة مع الاتحاد السوفيتي لإقامة العديد من المصانع الستراتيجيّة الموزعة بين عموم مدن العراق، وغير ذلك الكثير من الإنجازات.

وكان معظم الناس ومنهم أبي يُحبُّون الملك الشاب فيصل الثاني كثيراً، ولكنّهم لا يُحبُّون نوري السعيد والوصي عبد الإله. وذلك لاعتقادهم أن ولاءهم كان للإنكليز أكثر من ولائهم للعراق. مع ذلك أحبَّ معظم الناس ومنهم أبي الزعيم عبد الكريم قاسم بشكل غير معقول، وأصبح الكل يُعلّق صور الزعيم ويهتف بحياته من دون ضغط أو إكراه من أحد .

إلّا أنَّ مشاريع الثورة الفتيّة والمكتسبات الجماهريّة لم تَرُقْ لطبقة النخبة ومُلاك الأراضي الزراعيّة ولا لرجال الدين، وشاركهم في ذلك البعثيون والقوميون وتآمروا مرات ومرات إلّا أن نجحوا في الإجهاض على ثورة تموز في يوم 8 شباط 1963، إذ تمَّ إعدام الزعيم ورفاقه وقُتل المئات من الوطنيين والمثقفين وسُجِنَ وعُذّبَ الآلاف منهم في مقار الحرس اللا قومي (وهي ميليشيات خارج إطار الدولة تابعة لحزب البعث)، وفي مديريات الأمن السيئة الصيت. وبذلك دخل العراق في حمامات من الدماء التي أخذت تسيل من دون حساب أو كتاب إلى يومنا هذا.

المناضل الصغير

إضراب البنزين

مقلّباً في صور الماضي السحيق عثرتُ على هذه الصورة* التي أعادت ذكريات أيّام وأصدقاء وأحداث جميلة في عموم مظهرها مؤلمة في بواطنها. لم يتجاوز عمري في هذه الصورة سوى اثني عشر عاما، وكُنّا نسكن في شارع الهندي، منطقة البو جمعة، الكرادة الشرقيَّة. أُخذت هذه الصورة عام 1959 يوم كانت البجامة ليست قميصاً للنوم فقط، وإنما ملبس مناسب جدّاً خارج البيت ولركوب الدراجة والتجوال في الشوارع، وحتى الذهاب بها الى السينما.

***من اليمين حكمت الدقاق ومحمد حسين وقحطان السامرائي وعلي سبع أمام بيت قحطان في متفرع من شارع الهندي عام 1959**

من بين أصدقاء تلك المرحلة صديق الطفولة كان ومازال حكمت الدقاق، وصديق كان قريبا إلينا ولكن تدريجياً اتّسعت الهوة بيننا

نتيجة تعمّق الخلاف الفكري والانتماء السياسي، وهو قحطان عبد اللطيف السامرائي. كُنَّا في نقاش مستمر، خاصة بعد ظهور الخلاف بين الزعيم عبد الكريم قاسم والعقيد عبد السلام عارف.

أنا وحكمت كُنّا مع الاتجاه الوطني التقدّمي المؤيِّد للزعيم عبد الكريم قاسم، بينما كان قحطان ذا توجهٍ قوميٍّ، ومغرماً بالرئيس جمال عبد الناصر والوحدة مع مصر وسوريا تحت قيادته. كان قحطان أكبر منّا سنّاً بحدود السنتين أو الثلاث، ونتيجة لميوله القوميَّة انتسب الى حزب البعث في تلك المرحلة عن طريق الإخوة سمير وسعيد الطحّان.

كان من بين مكتسبات ثورة 14 تموز 1958 السماح بإجازة تكوين نقابات عماليَّة واتحاد للفلاحين، والعديد من المنظمات المهنيَّة والشعبيَّة. وبطبيعة الحال فإنَّ من مهام هذه النقابات أنَّها تدافع عن مصالح منتسبيها. وأول إضراب عمالي حدث بعد ثورة تموز كان لعمال السكائر عام 1959 حيث اعتصم العمال في مصانعهم لأيّام لحين تلبية مطالبهم. وكان أحد هذه المصانع في بداية محلة الصدريَّة مقابل المدرسة الجعفريَّة مُطلّاً على شارع الوثبة الرابط بين شارع الرشيد وشارع الجمهوريَّة. وأتذكر أنّنا ذهبنا هناك لإسناد العمال المضربين، إذ كانوا يتحدثون للجمهور المساند من شباك في الطابق الأول المطلّ على الشارع. كان إضراباً سلميّاً لم تحدث به أيَّة مصادمات، انتهى بتحقيق العمال لمطالبهم التي أعلنوا الإضراب من أجلها .

أما الإضراب الثاني، فقد حدث بعد أن أقدمت حكومة الزعيم عبد الكريم قاسم في ربيع عام 1962 على زيادة سعر وقود السيارات (البنزين) بمقدارٍ زهيدٍ وهو 5 فلوس للغالون الواحد على ما أتذكر. إنَّ القوى السياسيّة التي كانت متحكّمة بتحريك الشارع العراقي آنذاك كانوا الشيوعيين من جهة والبعثيين والقوميين متحدين من جهة

أخرى. ومن بين النقابات التي كانت ما تزال تحت سيطرة نفوذ الشيوعيين نقابة سواق سيارات الأجرة، والتي لم تكنْ من النقابات المهمة حينها، لذلك لم يبذل الزعيم جهداً واسعاً للسيطرة عليها. بينما النقابات المهمة من حيث العدد والتأثير الاقتصادي والاجتماعي مثل نقابة السكك الحديد ونقابة عمال النفط واتحاد الجمعيات الفلاحيَّة قد تمَّ السيطرة عليها عن طريق شراء ذمم بعض القيادات وتزوير الانتخابات لتنصيب قيادات موالية للزعيم بعد زجِّ معظم قادة النقابات اليساريين أمثال: علي شكر وصادق جعفر الفلاحي وكليبان وغيرهم في المعتقلات والسجون. ومن جهة أخرى فإنَّ من بين النقابات المهمة التي لم يستطع الزعيم السيطرة عليها هما نقابة المعلمين ونقابة المحامين اللتان كانتا تحت نفوذ مشترك بين القوميين والبعثيين.

كان البعثيون عام 1962 في مرحلة الإعداد للانقضاض على سلطة الزعيم، وتغيير السلطة السياسيّة عسكريّاً لصالحهم. لذلك قرروا أن يستفيدوا ويستغلوا قرار رفع أسعار البنزين لتأجيج الشارع ضد القرار، ومن ثمَّ ضد الحكومة والزعيم. لذلك حينما أعلنت نقابة سواق سيارات الأجرة الموالية لليسار الإضراب "السلمي" مطالبين برفع الحيف عن سواق السيارات الذين يعتبرونهم من الكادحين، قرر البعثيون أنَّ الإضراب السلمي لم يكن كافياً، ما لم تعمّ الفوضى ويسقط قتلى وتُسفك دماء. لذا قرروا أن ينقلوا الإضراب الى مرحلة أكثر عنفاً، وهو الاعتداء على باصات مصلحة نقل الركاب وهي الباصات الحمراء التي تعدُّ رمزاً متحرّكاً وسمةً من سمات مدينة بغداد كما هي لمدينة لندن البريطانية.

انتشر الغوغاء من دون دعوة أو تحفيز من قبل الشيوعيين أو النقابة، ولكن بدفع من أيادٍ لم تكن خفيّة وهي أيادي المناهضين للثورة، وبدأت مرحلة العنف، ضد سواق السيارات غير الملتزمين بالإضراب. ولكن الزعيم الذي كان همّه الوحيد في تلك الأيّام، هو إضعاف نفوذ

الشيوعيين في الجيش والجهاز الإداري الحكومي والشارع العراقي، بالرغم من أنّهم كانوا سنده الوحيد، لم يدرك خطورة الأمر وأبعاده السياسيَّة. لقد طالب البعثيون سواق الباصات العامة المشاركة بالإضراب، وكان ذلك من الصعب تنفيذه لعدة أسباب منها؛ أنَّ النقابة لم تطلب ذلك منهم، وثانيها أنّهم لا يدفعون ثمن البنزين، وثالثها أنَّهم يعملون لمصلحة حكوميَّة، وقد يؤدي ذلك لفصلهم عن العمل. وعليه لم يشارك سواق الباصات في الإضراب مما جعلهم هدفاً لغوغاء الإضراب في شوارع بغداد ومعظمهم من المراهقين والشقاوات (الفتوة).

صديقنا قحطان أمّا جاءته الأوامر من حزب البعث أو أخذته الحميَّة وخرج الى شارع الكرادة داخل قرب شارع الهندي في محلة البو جمعة ليشارك مع مجموعة من المراهقين المندفعين بالهجوم على إحدى باصات مصلحة نقل الركاب الحمراء، كي يحرقوها ويعتدوا على سائقها وجابيها (قاطع التذاكر)، ليسقط قتيلا مع غيره من الأحداث، منهم شاب اسمه خليل من سكنة أرخيتة وهو زميلٌ لنا في المتوسطة الشرقيَّة، برصاص رجال الأمن الذين كانوا في باصات المصلحة لحمايتها باعتبارها من الممتلكات العامة. سماعنا للخبر كان صدمة كبيرة لنا. قحطان صديقنا قتل!، لماذا وكيف وهل كان يجب أن يُقتل؟، وهل يستحق الإضراب مثل هذه التضحيات الجِسام؟، قحطان لم يكن سائق سيارة ومن ثم لا علاقة له بسعر البنزين. قحطان لم يكن سياسيَّاً بمعنى الكلمة لأنَّه لم يكن سوى فتىً مراهق تحت تأثير الأفكار القوميَّة.

كان لما حصل لقحطان أثر وتأثير وإعادة تفكير لما كان يحصل حولنا. أسئلة عديدة منها، لماذا تلجأ القوى السياسيَّة الى العنف؟ ولماذا تستخدم الدولة أقصى درجات الردع لتصل الى حدِّ قتل المتظاهرين، حتى وإن كانوا يعتدون على الممتلكات العامة؟، مضت ستون عاماً على هذا الحدث وللأسف مازال يتكرر ويتكرر ويتكرر عبر العقود.

ومن الجدير بالذكر أنَّه بعد انقلاب 8 شباط 1963 أُعتُبر قحطان شهيداً ومُنح رتبة ملازم لأغراض التعويض والتقاعد، وسُمِّيتْ ساحة مهمّة باسمه هي "ساحة قحطان" في اليرموك تخليداً له. الشعب العراقي قدَّم الآلاف من الشهداء السياسيين وخاصة الوطنيين واليساريين في كلِّ العهود. أين هي نُصُبُهم ورموزهم وأسماؤهم في شوارع وأزقة بغداد وعموم العراق؟، ولماذا تتنكَّر الحكومات المتعاقبة لتضحياتهم، علماً أنَّ الكلَّ يشيد بوطنيتهم وثقافتهم ونظافة أياديهم وولائهم للوطن؟

المتوسطة الشرقية

انتقلنا من مدرسة الحكمة الابتدائيّة الى المتوسطة الشرقيّة للبنين عام 1959/ 1960. باشرنا الدوام في بادئ الأمر في بناية الثانويّة الشرقيّة، إلّا أنَّه نظراً للزخم الكبير في التوجه نحو التعليم الثانوي بعد ثورة الرابع عشر من تموز، لم يعد مبنى الثانويّة يكفي لجميع الطلبة في ذلك العام. لذا تقرر فصل المتوسطة الشرقيّة عن الإعداديّة الشرقيّة، وأُستؤجر بيتٌ كبيرٌ مقابل الثانويّة الشرقيّة للبنات، لتكون بناية مؤقتة للمتوسطة الشرقيّة. كان في صفنا مجموعة من الطلاب لهم مكانة خاصة في تلك الظروف. أولهم مناضل ابن فاضل عباس المهداوي رئيس محكمة الشعب ذائعة الصيت في حينها. ثانيهم باسل لطفي طاهر ابن أخ وصفي طاهر المرافق الأقدم للزعيم عبد الكريم قاسم، وكان أبوه طبيباً بيطريّاً عسكريّاً، أصبح لفترة وجيزة مسؤولاً عن حماية الإذاعة والتلفزيون باعتباره من الضباط الأحرار. كذلك في صفنا مخلص عبد الجليل، الأخ الأصغر لغانم عبد الجليل، الذي علمنا لاحقاً أنَّه كان عضواً في القيادة القطريّة لحزب البعث، والذي أعدمه صدام لاحقاً نهاية عام 1979.

المتوسطة الشرقية 1962/1961

من بين أساتذتنا في المتوسطة الشرقيّة مدير المدرسة نعمان دهش، شخصٌ في منتهى الوقار والاحترام. والأستاذ القدير والشاعر البصري محمود البريكان الذي قُتل لاحقاً في عام 2002 في بيته بطريقة بشعة وغامضة. كان البريكان مُدرِّساً للغة العربيَّة، في منتهى الأناقة والأدب، يبدأ درسه بالخط الجميل على اللوحة لمادة الدرس.عرفنا عنه أنَّه من أهل البصرة وأعتقد قيل أنّه كان معتقلاً في العهد الملكي. يتكلّم مع الطلبة باللغة الفصحى، حتى حينما يغضب. فعلى سبيل المثال كان يُخاطبني حينما يلاحظ ثرثرتي: خليك واقف يا صاحب الزاوية. فأقف لحين انتهاء الدرس. أستاذ الفن والرسم ياسين الشيخلي، عازف كمان في فرقة التلفزيون الموسيقيّة، وأعتقد كان لديه عدد من الألحان. معلّم الرياضة كان سالم الشيخلي، ربما كان رياضيّاً إلّا أنّه عصبيُّ المزاج. الأستاذ عبد الهادي مدرِّس اللغة الإنكليزية كان حينما يغضب، يستعمل ألفاظاً شارعيه بذيئة جدّاً. وأستاذ غازي مدرِّس الجبر، كان جافّاً لأبعد الحدود، لا يمكن أن ترى للابتسامة مكاناً على وجهه.

وفي الصف الثالث متوسط إلتحق بنا بعد منتصف السنة الأستاذ عبد الجبار وهبي، بعد خروجه من السجن (في عهد الزعيم عبد

الكريم قاسم)، وهو مدرِّس علوم وفي الوقت نفسه صحفيٌّ معروفٌ كان يكتب عمود "كلمة اليوم" تحت اسم مستعار "أبو سعيد" في صحيفة "اتحاد الشعب" قبل إغلاقها في آذار من عام 1960. بعد ذلك تمَّ اعتقال رئيس التحرير عبد القادر اسماعيل البستاني وإبعاد عبد الجبار وهبي الى مدينة الرمادي تحت الإقامة الجبريَّة. تمَّ اعتقاله بعد حركة 8 شباط 1963 وعُذِّبَ وقُطِّعَ جسدُهُ وهو حيٌّ، وأعلن عن استشهاده في 19 تموز 1963 مع رفاقه محمد صالح العبلي وجمال الحيدري. لاحقاً أصبحت ابنته أنوار عبد الوهاب من المغنيات المشهورات أواخر الستينات والسبعينات من القرن الماضي.

الواقف مدير المتوسطة نعمان دهش، الكاتب الثاني من الخلف جنب الحائط

وكما ذكرتُ سابقاً، فإنَّ انشقاق الشارع العراقي بين مؤيِّد للزعيم ومناهضٍ له أثر بشكل مباشر على علاقات الجيرة، كذلك على علاقات الزمالة في المدارس والجامعات. وكان لا بدَّ من أن نرى تجمعات في المتوسطة الشرقيّة مبنيّة على الاتجاهات السياسيّة. كذلك كان واضحاً على الأساتذة ومنهم محمد أو أحمد الراوي وهو

مدرِّس اللغة العربيَّة للصف الثالث المتوسط، الذي كان يُركّز في محاضرته على انتقاد الانفصال بين مصر وسوريا في أيلول من عام 1961، فكان الراوي يفتعل الحديث ليصل الى لعنة الانفصال والانفصالين والكزبري والكزبريين (نسبة الى العقيد حيدر الكزبري أحد قادة الانفصال ومأمون الكزبري أول رئيس وزراء). ومن الأساتذة الآخرين كان عبد الستار النَّداف مدرِّس العلوم، والذي كان من الموالين للاتجاه القومي عموماً، حيث تمّت ترقيته ليكون معاون مدير الثانويّة الشرقيّة بعد 8 شباط 1963 .

أما من ناحية الطلبة، فقد ذكرت بعضهم، وهناك الكثير طبعاً، ومنهم الصديق علي طاهر منيب البستاني، ومن الذين كانوا معي في مدرسة الحكمة الأبتدائيّة مصطفى آل عيسى، وفائز مزهر شنين. بدأت الميول والفوارق في التوجهات السياسيّة تأخذ مجراها في العلاقات بين الطلبة. ففي مرحلتنا كان مناضل المهداوي مركز الحركة، وإن لم يكنْ مُغذيها. كنتُ آخذ معي النشرات السياسيَّة السريَّة، وجريدة اتحاد الطلبة "أخبار الطلبة" الى المدرسة وأوزعها بين من أعرفهم، وبذلك تكوّنت نواة أوليَّة لاتصالات طلابيَّة حركيَّة، كان لها الدور الأساس لاحقاً في أحداث الإعداديّة الشرقيّة والإضراب الطلابي الذي سبق حركة 8 شباط 1963.

مناهضة التجارب النووية

قرر مجلس أنصار السلام في العراق في صيف عام 1962، أن يشارك في الحملة العالميّة التي كان يقودها الفيلسوف البريطاني "برتنارد روسل" رئيس مجلس السلم العالمي، للاحتجاج على التجارب النوويّة بشكل عام، والتي تقوم بها الولايات المتحدة في صحراء نيفادا الأميركيّة آنذاك بشكل خاص. وكان لحملة برتنارد روسل هدفان أساسيان هما، وقف سباق التسلّح النووي من خلال إيقاف التجارب النوويّة التي يقوم بها الشرق والغرب وما يسببه ذلك من تلوث بيئي

مستديم، وكذلك منع خطر نشوب حرب نوويّة بين الاتحاد السوفييتي والغرب بقيادة الولايات المتحدة، خاصة بعدما شهد العالم أهوال وبشاعة قنبلتي هيروشيما وناكازاكي. لقد استقطبت تلك الدعوة التفاف وحماس الشباب الأوروبي، إذ كانت الاحتجاجات المُدوّيّة تجري في جميع العواصم والمدن، بمنتهى السهولة والحرية في أوروبا، إلّا أنّ الشباب العراقي الذي شارك بهذه الحملة دفع ثمنها غاليًّاً. وهذه هي القصّة كما عايشتها:

تقرّر أن تقوم وفود تمثل جميع شرائح الشعب العراقي للذهاب للسفارة الأميركية في بغداد في يوم الجمعة الموافق الثاني والعشرين من حزيران عام 1962، وتقديم عريضة احتجاج على التجارب النوويّة مكتوبة الى السفير الأميركي في بغداد. وبذلك تهيَّأتْ مجموعة تمثل المهندسين ومنهم حامد منيب البستاني، وأخرى تمثل التجار ومنهم علي كرمنجي، وأخرى للعمال ومن بينهم النقابي مهدي حبيب، وأخرى للأدباء وكان من بينهم الشاعر محمود عبد الريفي والصحفيون ومنهم مجيد الراضي وفخري كريم حبيب زنكنة (صاحب مؤسسة المدى حاليًّاً). وكانت مجموعة الطلاب برئاسة كريم الحجيَّة وعضويَّة حكمت الدقّاق وأنا ونحو ستة آخرين. تجمّعنا في موقف عام للسيارات في باب المعظم قرب كليّة الهندسة ودار الطلاب. وكلُّ مجموعة ما عليها إلّا أن تؤجّر سيارة أو باصاً للذهاب الى السفارة الأميركية لتسليم الاحتجاج للسفارة بشكل سلمي ومتعارف عليه دوليًّاً، والرحيل بالواسطة المؤجرة نفسها. ولم تكنْ هناك أيَّة نيَّة للتظاهر او الشغب او الاعتداء او أي شكل من أشكال العنف. ولكن حدث ما حدث.

وصل وفد الطلبة الى السفارة حيث كان كل شيء هادئاً وعادياً. وكان هذا النشاط السلمي في بغداد وضد التجارب النوويّة التي تمارسها أميركا المعادية والمتآمرة على العراق والزعيم عبد الكريم قاسم بشكل مستمر في تلك الفترة بالذات. ترجّلنا وبيد رئيس الوفد عريضة

الاحتجاج كي نسلّمها بشكل سلمي وحضاري الى السفير أو من يمثله. وحال وصولنا بوابة السفارة وإذا بنا نفاجأ بمجموعة كبيرة من رجال الأمن العراقي بملابسهم المدنيَّة متخفّين وراء بوابة السفارة. هذا يعني أنَّهم كانوا يعلمون بمجيئنا مسبقاً. فأما أنَّ السفارة كانت على عِلم، ونسَّقت مع الأمن أو أنَّ الأمن لديه خبر ونسَّق مع السفارة. وبدؤوا بالصياح والضرب بالأيادي والهراوات، وإذا بسيارات "البوكس" الحديديَّة على شكل أقفاص خضراء، الخاصة لنقل المسجونين والمجرمين، تأتي جاهزة لاعتقالنا ونقلنا الى دائرة الأمن في جانب الكرخ على ما أعتقد .

أنزلونا من الأقفاص الحديديَّة باتجاه مخطط له سلفاً، يُجبرنا على أن نمرَّ من خلال ممرٍّ ضيقٍ كان رجال الأمن الأشاوس مصطفّين على جانبيه والمؤدي للنظارة وغرف التحقيق. وعلى كلِّ واحدٍ منّا أن يمشي بينهم للوصول للجانب الآخر للحجز. كان من بين الأشخاص الذين أمامي كريم الحجيَّة الذي رفض أن يُطأطئ رأسه فانهالوا عليه بالضرب المبرّح. أما أنا فكنتُ في عمر الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ولم أحلق ذقني بعد وصغير الحجم. يبدو أنّهم أدركوا ذلك ولم يعتدِ عليَّ أحدٌ بالضرب، إلّا أنّ الرعب من هذا الاحتمال كان كافياً ليهزَّ مفاصل رُكبي ويفصلها عن جسمي، وإن كانت شجاعتي متماسكة وعلى أوجها. ونحن في الحجز بانتظار التحقيق جاءت التعليمات من كريم الحجيَّة، وقال لنا: علينا أن نتحدّاهم ونسمعهم أصواتنا، وحينما يسألونكم عن سبب زيارتكم للسفارة، لا تكذبوا وقولوا إنّنا ذهبنا لنحتجَّ على التجارب النوويَّة ولا تنكروا ذلك (بمعنى آخر الاعتراف بالذنب الذي يبحث عنه المحقق). وهذا ما قاله الجميع عدا اثنين وعلى الأغلب لم تصلهم التعليمات.

مركز شرطة المنصور

بعد انتهاء التحقيق مع الجميع بسرعة متناهية، تدل على كفاءة الجهاز الأمني واستعداده المسبق، وزعونا بين عدة مواقف لكثرة عددنا. فرحّلونا أنا ونحو خمسة عشر شخصاً الى مركز شرطة المنصور قرب ساحة سباق الخيل. وكان في هذا المركز موقفان: الأول كبيرٌ وذو بابٍ من حديد مشبّك أي مفتوح على الخارج للرؤية والتهويّة. والثاني هو في تقديري مُعَدٌّ كموقف أو زنزانة لشخص أو شخصين فقط، مساحته نحو خمسة أمتار في ثلاثة أمتار، بابه حديد صلب لا منفذ فيها سوى شباك أعلى الباب حجمه بقدر كفِّ اليد. وعلى الأغلب فإنّه مصممٌ ليكون سجناً انفراديّاً لأعتى المجرمين. المهم اختاروا لنا السجن الانفرادي ووضعونا جميعا فيه، وكان عددنا نحو أربعة أو خمسة عشر شخصاً. وكان ذلك في ظهيرة يوم حار جدّاً من أيّام الصيف في الثاني والعشرين من حزيران عام 1962 في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم الذي كُنَّا وما زلنا نكنُّ له الحبَّ والتقدير والتأييد.

وبقينا في هذا الموقف عشرة أيّام كاملة لا نخرج منه إلّا مرّة واحدة في اليوم لاستخدام الحمّام الخارجي على عجل. ولقد علمنا أنَّ من بين الموقوفين في الردهة الثانية المرفّهة والواسعة قاتل وناهب وحرامي. وكانت تهمة أحدهم اغتصاب ابنته. مع ذلك كانوا هم الأولى بالموقف ذي الخمس نجوم، يعاملون معاملة جيدة أفضل منّا بكثيرٍ لأنَّنا كُنّا أكثر إجراما وخطراً على المجتمع منهم!، طبعاً المكان لا يكفي كي نتمدّد وننام جميعنا في آنٍ واحدٍ وكُنّا نتناوب على ذلك فالبعض نائم والبعض جالس القرفصاء والآخر واقف. وفوق هذا كلّه كانت هناك موجة حرٍّ شديدة جدّاً وعليه كُنَّا شبه عُراة. ولدينا تواليت داخل الموقف وكلّما استخدمها أي منّا امتلأت الغرفة بالرائحة والكلُّ يشعر بالغثيان. وفي اليوم الأول وضعت أنفي على حافة الجهة السفلى من الباب الحديدي لأتنفّس بصيص هواء يدخل من الخارج إلينا.

كان هذا البصيص من الهواء النادر قادراً على أن يُسكرني كي أنام في تلك الليلة المشؤومة والليالي التي بعدها.

زيارة ليتها لم تحدث

كان لأبي صديق عزيز في سوق الشورجة وهو "أبو سعد" (عبد الوهاب أحمد العلي) الذي لديه الكثير من المعارف في أجهزة الأمن والشرطة من منطقته الأصلية شهربان. وعلى ما يبدو فإنَّ الزيارات كانت ممنوعة، إلّا أنَّ "أبو سعد" استطاع أن يحصل على موافقة لأمّي كي تزورني، وليته لم يفعل ذلك. قابلتني أمّي من وراء ذلك الشبَّاك وكنتُ بملابسي الداخليَّة فقط من شدّة الحرّ وعدم توفر الهواء. وإذا بها تنغمر بالبكاء وتنهار قواها وتسقط على الأرض. بعدها رجعتُ الى مكاني في زاوية من زوايا ذلك الجحر الذي لا يليق حتى بالكلاب السائبة، ووجه أمّي المسكينة وهي تجهش بالبكاء لا يفارقني، فانهمرتْ دموعي وظللتُ أبكي وأبكي، وساد مجموعتنا الوجوم والحزن ولم يحاول أن يحدثني أحدٌ بهذا الموضوع. كانت مجموعة المعتقلين معي، أكبر منِّي سنّاً ومنهم من كان بعمر أبي. كان من بينهم غازي لعيبي من مدينة الثورة الذي لا تفارق النكتة أحاديثه، وحبيب مهدي عامل خياطة يبدو عليه أنّه كان أميَّاً إلّا أنّه كان على قدرٍ كبيرٍ من الثقافة السياسيَّة، وباسل من كربلاء الذي كان قد تزوّج حديثاً، وحنا الذي كان زراق في جفون عينه من شدة الضرب، وصبحي من سكنة حي دراغ في المنصور الذي كان قد خطب للزواج، والشاعر محمود عبد الريفي الطيب الهادئ الخجول، والصحفي مجيد الراضي الذي ربما كان يلعب دوراً قياديّاً في المعتقل، وصائغ صُبِّي أعتقد اسمه محمود منتهى الأدب والأخلاق، وأديب من تكريت، وآخرون تلاشتْ اسماؤهم وملامح وجوههم عبر الزمن. لقد كانت مجموعة مثقفة من أرقى ما يمكن أن تتعامل معهم في وضع كهذا، حيث لا يمكن لأخ أن يحتمل أخاه. ولكن ثقافتهم ووطنيتهم وأخلاقهم كانت من أعلى ما

يمكن، لذلك فإنّهم جميعاً احترموني وقدروني واعتنوا بي، مما هوَّن عليَّ الأمر كثيراً.

الموقف العام: القلعة السادسة

وبعد عشرة أيّام عجاف، وفي اليوم الأول من تموز تمَّ نقلنا الى الموقف العام القلعة السادسة في باب المعظم. وهناك التحقت مجدداً بزميلي وصديقي حكمت وكريم الحجيَّة وعلي كرمنجي من الشورجة. كان انتقالنا الى الموقف العام كمن ذهب من النار الى الجنة. حيث أنّ لكلِّ شخصٍ مكاناً وفراشاً، وهناك مراوح وماء ودورات مياه خارج غرفة الموقف نستخدمها متى نشاء. وكان لنا حمّام للغسل ومطبخ صغير للشاي، أما الطبخ للسجناء كوجبة الغذاء والعشاء فكانت تتمُّ في القلعة الخامسة. كان معظم المسجونين في القلعة الخامسة والسادسة هم من الشيوعيين واليساريين وأكراد من حزب البارتي المتهمين بأحداث كركوك. وهناك التقيت بالمحامي القيادي حمزة السلمان من منطقة الزويَّة في الكرَّادة الشرقيَّة، والمتهم بالمشاركة في أحداث الموصل وكركوك والذي ظلَّ موقوفاً مع المئات مثله لحين حدوث حركة 8 شباط 1963، إذ تمت تصفيته مع المئات من المناضلين. والتقيت بصادق جعفر الفلاحي القائد العمالي النقابي المخضرم والموسيقار أحمد الخليل الذي لحَّنَ وغنّى أفضل الأغاني للزعيم والثورة مثل أغنية هربجي كرد وعرب وأغنية موطني (ليست نشيد "موطني") والذي لَحَّنَ لمائدة نزهت والعديد من الفنانين العراقيين، والمهندس المثقف الصلب حامد منيب البستاني وهو عمُّ زميلي وصديقي علي طاهر منيب البستاني وصفاء الجصَّاني (ابن أخت الشاعر محمد مهدي الجواهري) ولطيف الحاج (أخ عزيز الحاج القيادي في الحزب الشيوعي) والعديد من الأدباء والشعراء والمناضلين الذين كانوا يسترجعون ذكريات السجون في سجن الحلة والكوت وبعقوبة ونكَرة السلمان أيَّام العهد الملكي. ومن الغريب جدّاً

فإنَّ كلَّ الموقوفين كانوا من أشدِّ المؤيِّدين للزعيم عبد الكريم قاسم وثورة 14 تموز. وكنتُ أسأل نفسي دائماً لماذا تعتقل الدولة مؤيديها؟ وكيف يمكن أن تكون مُعتقلاً وما زلت مناصراً لمن اعتقلك؟، أسئلةً ما زالت الإجابة عنها تحمل أوجها متباينة وغير مقنعة في معظم الحالات.

أعادة التحقيق

توسّط والدي لدى ابن مدينته "النجف الأشرف" السيد محسن الرفيعي مدير الاستخبارات العسكريَّة، كي يطلق سراحي. وكان جواب محسن الرفيعي لوالدي:

"والله لو كان ابنك بعثي لو قومي لو قواد لو قاتل قتلة... لكنت قد أطلقت سراحه في الحال... ولكن شيوعي هاي لتحجي بيه"

نعم كان ابن أبي أدنى وأخطر من كل هؤلاء، لأنّه كان يناضل من أجل السلام العالمي، مناهضاً للحروب، ومدافعاً عن الفقراء والمحرومين والمضطهدين، ولأنّه كان وطنيَّاً يحب الخير لشعبه ووطنه. كلُّ هذه الأسباب تجعل مدير الاستخبارات مرعوباً من شاب لا بل طفل عمره خمس عشرة سنة. حَدَثَ هذا في عهد الزعيم الوطني عبد الكريم قاسم، وكان هذا الشخص مديراً للمخابرات العسكريَّة وأخفى عنه المعلومات التي أدت إلى نجاح ردّة 8 شباط الدمويَّة عام 1963. وعلى أيّة حال يبدو أنَّه طلب من أبي أن أغيِّرَ إفادتي وأنكر أنّني ذهبتُ للاحتجاج على التجارب النوويّة الأميركية، ثم يفكّر بمساعدتي. وبعد مكوثي نحو عشرة أيَّام في الموقف العام، جرى استدعائي وحدي من دون الآخرين لمكتب التحقيق العرفي الثاني. ومن الموقف العام رحَّلوني مشيَّاً على الأقدام، الى وزارة الدفاع وأخذني الشرطي المرافق الى إحدى المكاتب، فدخلتها. وهناك كانت مجموعة من ضباط الجيش برتبٍ عالية وفي منتهى الأناقة والأدب. سألوني لماذا ذهبت

الى السفارة الأميركية؟ قلتُ للاحتجاج على التجارب النوويَّة. قال أحدهم: إنَّ أباك يريد مساعدتك كي يُخلى سبيلك وهذا يتطلب تغيير إفادتك. قلتُ: لا أريد أن أُغيِّر إفادتي. قالوا: لماذا؟ قلتُ: لأنّي لا أريد أن أكذب. طبعا كان عقلي يقول لي لقد سعى والدي كثيراً كي يُخرجني من هذا المأزق، وتذكرت بكاء أمّي في مركز شرطة المنصور، إلّا أنَّ الإيمان العميق، بما كُنّا نقوم به هو الحق، ويستحق التضحية دفعني للإصرار على عدم تغيير إفادتي .

طبعا هذه المرة كانت رهبة التحقيق تختلف عن سابقتها، ففي الأولى كُنَّا مجموعة كبيرة يصل عددنا بحدود المئة نستمدُّ القوَّة والمعنويَّة من بعضنا البعض. أمّا هذه المرّة فكنتُ وحدي لا سند لديَّ ولا عمد وعمري لم يتجاوز الخامسة عشرة. لم يستمر التحقيق معي كثيراً، وأمروا بإعادتي الى الموقف العام. وحينما أفكّر بها أقول: دَعْكَ من رجال الأمن والشرطة والاعتقالات الاعتباطيّة وغير القانونيّة، ولكن كيف ارتضى ضباط حقوقيّون برتبٍ عالية لأنفسهم أن يُرجعوني الى الموقف بعد أن علموا أنّني لم أقمْ بأيِّ عمل ضد الدولة، وبعد أن رأوني وميّزوا عمري من أنّني من دون السنِّ القانونيَّة حتى للاعتقال.

رجعتُ الى الموقف العام، فاستقبلني حكمت وذهبتُ للجلوس على مفرشه وحكيتُ له ما دار، وبعد ذلك فكرتُ بعناء أبي وتنازله وتواضعه، ربما توسّله لأناسٍ لا يستحقون، من أجل إطلاق سراحي، وتذكّرتُ رعب وخوف أمِّي ولَم أتمالك نفسي، واجهشتُ بالبكاء كثيراً. قاطعني أبي ولم يزرني بعد ذلك لأنّه تعبَ كثيراً حتى رتَّب موضوع إعادة الإفادة. أما أمّي فكانتْ كلما تأتي في يوم المقابلة، يُغمى عليها وتجهشُ بالبكاء وبعد رحيلها أشعر بغربة قاتلة وذنب كبير ويغصّ قلبي وتنهمرُ دموعي وأدفنُ رأسي في وسادتي وأبكي وأبكي حتى أنام. وكان من الذين زاروني فضلا عن أمِّي خالي مهدي الذي كان مرحاً دائماً وزوجته أم حيدر وابن خالتي ناجي عبد الحسين.

عشرة أيّام في موقف مركز شرطة المنصور في ظروف غير إنسانيَّة بتاتاً، وثلاثون يوماً في الموقف العام القلعة السادسة التي التقيت فيها بمجموعة كبيرة من النقابيين أمثال كليبان صالح رئيس نقابة الميكانيك الذي كان مرحاً دائماً، وصادق جعفر الفلاحي ومحاضراته القيمة، وعلي الكرمنجي وهو صديق خالي حجي كريم ومن سوق الشورجة، والذي كان يرعاني عن بُعدٍ، ومهدي حبيب العامل المثقف والناشط في نقابة عمال الخياطة، وغيرهم الكثير من المخضرمين في السياسة ومن الشباب اليافع أمثالي وأمثال حكمت الذي يكبُرني بسنة او سنتين، أما أنا فكنتُ أصغر المعتقلين. تعلّمتُ في المعتقل أن أحلقَ ذقني، وتعلّمتُ لعبة الشطرنج، حيث كُنّا نصنعها من حشوة الصمون. لم يكن هناك أحاديث كثيرة في السياسة، لأنّه موقف لمدد قصيرة وليس سجناً لمدد طويلة، عدا محاضرات صادق جعفر الفلاحي المناضل المخضرم من العهد الملكي ونقيب عمال السكك الحديد. إذ إنَّ الزعيم شنَّ حملة قاسية على كلِّ القادة النقابيين في عام 1960 وما بعدها، وفصلهم من وظائفهم وزجَّ العديد منهم في السجون.

الأفراج لحين المحاكمة

تمَّ الإفراج عنَّا بكفالة في اليوم الواحد والثلاثين من شهر تموز 1962، وذلك بعد مرور أربعين يوماً على توقيفنا، وأخذونا الى مركز شرطة السراي لإجراء معاملة الكفالة. وجاء خالي صاحب لكفالتي، إذ إنَّ أبي كان ما يزال مخاصماً لي لعدم قبولي تغيير إفادتي. وأحيلتْ قضيتُنا الى الحاكم العسكري العرفي الثاني شاكر مدحت سعود رئيس المحكمة العرفيَّة الثانية وهو من أشدِّ الحاقدين على الوطنيين والتقدميين. والسبب أنَّ هذه القضية أحيلتْ الى محكمة عرفيَّة لأنَّ العراق كان ما يزال تحت سلطة الأحكام العرفيَّة منذ 14 تموز 1958 على الرغم من مرور أكثر من أربع سنوات على الثورة.

يفداك من راعك

بعد أن خرجتُ من المعتقل لفتَ انتباهي شيئان مهمان: الأول، أنَّ عائلتي كانت فرحة جدّاً بعودتي الى البيت، وأنّهم لم يعاتبوني على ما فعلتُ وخاصة أبي الذي يحقُّ له ذلك وأنا في عمر الخامسة عشرة فقط. والشيء الآخر، أنّني حينما ذهبتُ الى سوق الشورجة للعمل مع أبي استقبلني التجار وموظفوهم وحتى حمَّالو السوق بالابتهاج والفخر. وسمعتُ من معظمهم مصطلح لم اسمعه سابقاً (يفداك من راعك). وهو مصطلح لا أدري إنْ كان دارجاً أم أنَّه ذو معنى تأييد لما قمتُ به واستنكار لمن عاقبني. كذلك تلمستُ من معظمهم أن أبي رغم توسّطه لإخلاء سبيلي، إلّا أنّه كان فخوراً بي حينما رفضتُ التنازل، وكان يتباهى بشجاعة ابنه المناضل الصغير. هذا الاستقبال جعلني أشعرُ أن ما نقوم به مهمٌّ وله مردودٌ إيجابيٌّ لدى عامة الناس.

كان والدي ووالدتي يمنحونني ثقتهم دائماً، ويعتمدون عليَّ كثيراً بالمسؤوليات العائليّة، باعتباري الابن البكر لسبعة أطفال، (وهم خمسة ذكور وأختان). ومع ذلك كنت أنتظرُ منهم عقاباً او عتاباً او على الأقل حواراً، إلّا أن أيَّ شيءٍ مما ذكرتُ لم يحدث أبداً. وهذا ما تركني أفكّرُ كثيراً بيني وبين نفسي، هل أنَّ ما نقوم به يستحق كلَّ هذه المخاطر والمعاناة والتضحيات، ونحن في عمر يافع جداً؟، حقيقة الأمر كنتُ وغيري كأنَّنا رُكّابٌ في طائرة محلّقة في الجو العالي لا فرصة فيها ولا قرار قبل الوصول الى مطار الاستقبال بسلام.

المحكمة العرفية

تغيَّرت السلطة بعد انقلاب 8 شباط 1963، وقُتل الزعيم ورفاقه، وتسلَّم البعث السلطة. وعادةً حينما تتغيّر السلطة تُلغى او تُسَقطْ الدعاوى السياسيَّة المرتبطة بالعهد الذي سبقها. إلّا أنَّ قضية التجارب النوويّة لم تنتهِ حتى وإن كانت من القضايا التي حدثت في

عهد الزعيم عبد الكريم قاسم. فالدول البوليسيَّة تنسى حقوق المواطنة ولا تنسى حقوقها في فرض الطاعة العمياء على مواطنيها. فمن حيث الاضطهاد فإنَّ هناك استمرارية من عهد الى عهد، خاصة فيما له علاقة بالقوى التقدميَّة.

غازي لعيبي وزمرته

اضطررتُ للهروب من الكرَّادة الشرقيَّة وانتقلتُ للسكن في منطقة النوّاب في مدينة الكاظميَّة في بيت خوالي محسن وكريم ومع خالتي حياة وجدّتي، هروباً من الملاحقات خاصة بعد حركة الشهيد "حسن سريع" في معسكر الرشيد في 3 تموز 1963، وصدور أمرٍ باعتقالي من قبل الحرس القومي. مع ذلك استمريتُ بالعمل مع والدي، إذ كنتُ أذهب من مدينة الكاظميَّة الى سوق الشورجة للعمل معه يوميّاً. طلبَ منِّي جارُنا في سوق الشورجة الأخ خليل محمد كمال الدين أن يتكلّم معي في محلِّهِ في بناية الطحّان المقابل لمحلّنا في دربونة (زقاق) حسين بن روح في الشورجة. كان ذلك في منتصف شهر آب 1963 تقريباً. وإذا به يُريني الجريدة وبها أمر باعتقال المجرمين الهاربين مجموعة "غازي لعيبي وزمرته"، وكان اسمي أحد الأسماء في تلك القائمة، الصادرة من رئيس المحكمة العرفيَّة الثانية في معسكر الرشيد. وهي الدعوة المقامة علينا من عهد الزعيم عبد الكريم قاسم قبل الانقلاب، بخصوص الاحتجاج على التجارب النوويَّة. نصحني خليل بأن أترك الشورجة حالاً، لأنّه على حدِّ قوله "مثلما أنا قرأتها سيقرؤها الآخرون". وفعلا تركتُ الشورجة مُسرعاً وذهبتُ الى الكاظميّة كي أبقى ليل نهار هناك. وعلى الرغم من معرفتي أنَّ معظم شباب تلك المنطقة من المتعاطفين، إلّا أنّني آثرتُ الابتعاد عن أي اتصال. وكنتُ أذهب وقت العصر الى منتزه 14 تموز الذي كان قد افتتحه الزعيم قرب جسر الأئمة جهة الكاظميّة، والتقي هناك

بشخص واحد فقط هو إياد مال الله وهو من سكنة الكاظميّة ومن أصدقاء سوق الشورجة.

استطاع والدي أن يُرتّب واسطة لي عن طريق صديقه "أبو سعد" (عبد الوهاب العلي) مرّة أخرى، كي يأخذني الى مديرية الأمن العامة وأسلم نفسي، وأقول لهم إنّني لستُ هارباً ومستعدٌّ لحضور المحاكمة حال حصولها. وذهبتُ وبقيتُ في النظارة، ولفت انتباهي أنّه فضلا عن الموقوفين الشيوعيين، كان هنا قوميّون عرب موقوفين أيضا وهم شركاء الأمس بالجريمة. المهم كان هناك الكثير من الأخذ والرد مع الواسطة الى أن أطلق سراحي بكفالة أخرى لحضور المحكمة.

الصديق غير المخلص

وفي بداية أيلول عام 1963 كان الوضع قد اسْتَتَبَّ للانقلابيين، وشعر أهلي وكذلك شعرتُ أنا من أنّه من الممكن أن التحق لإكمال دراستي في الإعداديّة الشرقيّة، خاصة بعد ما عالجنا موضوع الإنذار بالجرائد الرسميّة. وذهبتُ يوم التسجيل وهو تسجيل روتيني، باعتباري طالباً في المدرسة وناجحاً من الصف الرابع الى الصف الخامس الإعدادي. كان مسؤول التسجيل هو الأستاذ عبد الستار الندّاف، مدرِّس العلوم في المتوسطة الشرقيّة، والذي رُقِيَّ الى معاون مدير الإعداديّة الشرقيّة لميوله البعثيَّة. حينما رآني طلب منِّي أن استقدم ولي أمري للتسجيل لأنّه يعرف نشاطي جيداً. أخذت ابي في اليوم التالي، وأخذ من والدي تعهُّداً بأن لا أتدخل في السياسة كشرط قبل أن يسجلني. شعرتُ مرَّة أخرى من أنّني وضعتُ والدي في موقف مُذل، ومهانة لا يستحقها من قبل حثالة يتحكّمون بنا وبمستقبلنا.

وبعد يومين أو ثلاثة من بدء العام الدراسي 1963/ 1964 جاء أحد طلاب الاتحاد الوطني الى الصف، وطلب حضوري الى مكتب مدير المدرسة. ذهبتُ معه وكان ينتظرني في مكتب المدير أحد أفراد جهاز الأمن، وهو المفوّض موسى عمران الخفاجي (والذي أعدم في زمن

صدام لاحقاً)، وكنتُ أعرفه لأنَّ أخاه عباس عمران وهو من عمري، كان صديقاً لي حينما كُنّا نسكن في شارع الهندي. أخذني مع شخص آخر بسيارة فولكس واكن الى مقر أمنٍ سرّيٍّ في "إرخيته". وعند خروجنا من غرفة المدير يونس الطائي الذي كان متعاوناً جدّاً مع الأمن، رأيتُ مخلص عبد الجليل (وهو أخ غانم عبد الجليل عضو القيادة القطريّة للبعث، والذي أعدمه صدام لاحقاً) يُراقب من بعيد، فعلمتُ أنّه كان وراء هذه الإخباريّة. كذلك علمتُ لاحقا من أنّه طلب من شخص آخر أن يستدعيني من الصف، وقال له "انت روح جيبه لأنه صديقي ما أكدر" (كُنّا في المتوسطة الشرقيّة في الصف نفسه لثلاث سنوات). طلبتُ من الأمن أن اتصل بأهلي كي أعلمهم، فقال لي المفوّض موسى بأسلوب المزاح غير المضحك: "هسه يعرفون أن عصابات الأمن قد خطفتك".

وصلتُ للأمن العامة ووضعوني في النظارة مُجدداً. رأيت من بعيد جالساً في مكتبه أبو صباح (نوري العاني)، ورآني وهو يعرفني جيداً، وشعرت بالراحة لأنّه صديق لوالدي وعمل في الشورجة كوكيل إخراج كَمركي، بعد أن فُصل من الأمن العامة بعد ثورة 14 تموز 1958، لأنّه كان من المقرّبين لبهجت العطية مدير الأمن العام في عهد نوري السعيد والذي حكم عليه بالإعدام مع التنفيذ في عهد الثورة. وقد أُرجع الى الخدمة بعد ردّة شباط (وهذا يُفسِّر من كان وراء الانقلاب). المهم كانت الإخباريّة على موضوع محكمة العرفي الثاني نفسه. وحينما استدعاني أبو صباح للتحقيق، شرحتُ له الأمر من أنّني جئتُ بمحض إرادتي قبل أسبوعين وخرجت بكفالة، وان هذه الإخباريّة قديمة. المهم أخرجني بكفالة اخرى بعد أن قضيتُ كل اليوم في الأمن العامة مرة أخرى. وحينما كنت في موقف الأمن العامة كان هناك بين الموقفين العدد الكبير من القوميين العرب الذين شاركوا في 8 شباط والذين أصبحوا يتودّدون لليساريين بعد أن أبعدهم البعث عن السلطة.

المحكمة العرفية الثانية

جاء موعد المحاكمة أمام الحاكم العسكري العرفي الثاني شاكر مدحت سعود رئيس المحكمة العرفيَّة الثانية ومقرها في معسكر الرشيد. كانت المحاكمة بعد حدوث انقلاب 18 تشرين الثاني 1963. لا أعلم بالضبط متى ولكن أعتقد أنّها كانت في عام 1964 او 1965. وكانت حكومة عبد السلام عارف تحاول أن تُبعد نفسها عن جرائم البعثيين، والظهور بمظهر المعتدل في تعاملها مع المعتقلين اليساريين. حضر من مجموع المئة شخص نحو عشرين شخصا فقط. وحضر للدفاع عنِّي المحامي المعروف والقيادي في الحزب الوطني الديمقراطي "مظهر العوّادي" وهو معرفة وصديق لصديق أبي "أبو سعد، عبد الوهاب أحمد العلي" والذي له أفضالٌ علينا على الرغم من اختلافنا الفكري معه. وكان من الحاضرين المهندس حامد منيب البستاني. نصحني المحامي أن أغيِّر إفادتي من أني لم أكنْ مشاركاً في الأحداث، وهذا ما تمَّ بالفعل حيث أنكر الجميع، ما عدا المهندس حامد منيب البستاني الذي حُكِمَ عليه بالسجن أحد عشر شهراً مع التنفيذ، وحُكِمَ على الباقين وأنا منهم بالسجن أحد عشر شهراً مع وقف التنفيذ.

ثلاث حكومات وقضية واحدة

ثلاث حكومات متعاقبة هي حكومة عبد الكريم قاسم وسلطة البعث الأولى عام 1963 وحكومة عبد السلام عارف، كلّها اتفقت على أنّ هذا النشاط هدَّام، وعليه أسهموا جميعاً في اعتقالنا لمدة أربعين يوماً في ظروف سيئة جدّاً، وحُكِمَ علينا بالسجن أحد عشر شهراً وأصبح لنا سجلٌ في الأمن والجنايات باعتبارنا مجرمين ومحكوما عليهم ومن أرباب السوابق، لا لشيء سوى لمحاولتنا تأييد الدعوة لوقف التجارب النوويّة ووقف سباق التسلّح العالمي بين المعسكرين الشرقي والغربي. وهنا نتساءل، ما هي العقليَّة التي دعتْ لهذا الاحتجاج في بلدٍ مازال تحت الأحكام العرفيَّة وممنوع فيه أي تجمّع أو تظاهر أو أي نشاط سياسي أو حتى مدني. كيف هُدرت هذه الطاقات الشابة في

عمل ملائم للممارسة فقط في الدول المتقدمة مثل الدول الأوروبية. كان هذا النشاط وغيره من الأنشطة غير المناسبة وغير الضروريّة، التي أدت الى خسارات وتضحيات لا مردود لها إطلاقاً للأسف الشديد. إلّا أنَّ هذا لا يعني الانتقاص من الهدف السامي الذي سعتْ اليه هذه الأنشطة ولا يقلل من قيمة الشباب الذين انخرطوا بهذا النشاط، بل على العكس فإنّها تُظهر الكثير من نكران الذات، ومن أنَّ هناك أناساً ينظرون للعالم كوحدة إنسانيَّة واحدة. وربما لولا برتنارد روسل وحركة السلام العالميَّة والاحتجاج على التجارب النوويَّة والدعوة لوقف سباق التسلّح منذ ذلك الحين لما وصلنا لما نحن عليه اليوم من وقف للتجارب النوويَّة والمعاهدات بين الدول العظمى لتخفيض الرؤوس النوويَّة ومحاولة منع حصول دول أخرى على السلاح النووي.

تحيَّة للشباب الذين ناضلوا بكلِّ صدقٍ وإخلاصٍ من أجل الإنسانيَّة جمعاء، والخزي والعار للمستبدين الذين اضطهدوا الأفكار الإنسانيَّة وجعلوا ممارسة أي نشاط سلمي حضاري جريمة يدفع من يمارسها ثمناً باهضاً يصل لخسارته لوظيفته وحريته وربما حياته أو الهجرة من وطنه الذي أحبَّهُ وأخلصَ له. ومن المؤكّد أنّ استمرار الاضطهاد الفكري لستة قرون أدى إلى ما آلتْ اليه الأمور من التدهور الحضاري وضعف الشعور الوطني لدى المواطن العراقي في وقتنا الحاضر.

سفرة أتحاد الطلبة للصدور

كان الاتحاد العام لطلبة العراق، المنظمة الرسميَّة الوحيدة لطلبة العراق منذ 14 تموز عام 1958 لغاية 8 شباط 1963. ازدهر نشاط الاتحاد بعد ثورة تموز كغيره من نشاطات المنظمات المهنيّة والنقابات والجمعيات والمنظمات الديمقراطيّة، مثل رابطة المرأة العراقيّة والشبيبة الديمقراطيّة. إلّا أنّه بعد الأحداث الدامية في

الموصل وكركوك، تغيَّر موقف الزعيم عبد الكريم قاسم من هذه المنظمات، إذ قام بإغلاق المقاومة الشعبيّة والشبيبة الديمقراطيّة ورابطة المرأة العراقيّة، وسيطر على الجمعيات الفلاحيّة ومعظم النقابات العماليّة. صاحَبَ ذلك حملة اعتقالات وفصل ونقل وتهميش للمئات من الناشطين وقادة هذه المنظمات.

إلّا أنَّه كان من الصعب جدّاً الوصول للنتائج نفسها فيما يخص الاتحاد العام لطلبة العراق، وذلك لا يعني عدم وضع الخطط لإنهائه. الصعوبة كانت هو كيفيَّة اختراق أجهزة الأمن لتنظيمات الطلبة. ومع ذلك كانت هناك خطوات محسوبة لإنهاء دور الاتحاد تدريجيَّاً. من بين تلك الخطوات، حصر نشاط الاتحاد لطلبة الكليات والمعاهد ومنعه في الثانويات. إغلاق جميع مقار الاتحاد في الثانويات والمعاهد والكليات. إلغاء دور ممثل الطلبة في مجالس إدارة المدارس والمعاهد والكليات.

لم يَبْقَ للاتحاد سوى مقر واحد، هو مقره المركزي في الوزيريَّة قرب كلية التربيَّة. كان مقر الاتحاد مراقباً ومرصوداً، إلّا أنَّ الناشطين كانوا يزورونه خاصة من الكليات القريبة عليه، مع عدد غير قليل من ناشطي الثانويات. كنتُ أنا والزميل حكمت من الزائرين المعتادين، وكنتُ أكثر طالب ثانوي يزور الاتحاد، لأنّي كنتُ في ذلك الوقت أساعد والدي في سوق الشورجة، وبعد الدوام أذهب مساءً لمقر الاتحاد.

ينظم الاتحاد سفرة طلابيَّة في بداية كلِّ عام دراسي يجمع فيها مؤازريه في نشاط تعارفي اجتماعي ترفيهي. كانت منطقة سدّة الصدور اختيار موقع السفرة لعام 1962/ 1963. وأعتقد كان ذلك في حدود نهاية كانون الأول 1962.

سفرة الاتحاد للصدور عام 1962

سفرة اتحاد الطلبة الى الصدور عام 1963/1962، يظهر في الصورة من اليمين الأول لا أتذكر اسمه، محمد حسين، حسن، فؤاد ناجي ووليد عبو

سفرة أتحاد الطلبة الى الصدور عام 1962 ويظهر في الصورة: الواقفون من اليمين: طارق علي شيخو، جان سيمون، محمد حسين، سامي التكمجي، الجالسون عادل ومناضل المهداوي.

الواقف وليد عبو، سالم، مناضل، رحيم جوي، طارق، ؟، محمد حسين

الصدور: وسط الصورة محمد حسين وخلفي محمد حسن

كما نرى في الصور حيث استخدم أحد المرتفعات ليكون منصبة خطابات واناشيد واغاني. اغاني واهازيج وطنية مثل:

رف يا حمام يا حمام يا حمام غني نشيد السلام السلام
رف يا حمام علينا علينا
رف يا حمام على بلادي على الجبل على الوادي
صوت السلم عالي ينادي
رف يا حمام علينا علينا
رف يا حمام على بغداد على العرب على الأكراد
رف على موطن الأجداد
رف يا حمام علينا علينا

أو أغاني مشهورة مثل اغنية أحمد الخليل:

هربجي هربجي هربجي
كورد وعرب رمز النضال
من تهب أنسام عذبة من الشمال على ضفاف الهور تفتح كلوب
لو عزف على الناي راعي بالشمال على الربابة يجاوبه راعي
الجنوب
هربجي هربجي هربجي
كورد وعرب رمز النضال

وكذلك بعضاً من الأغاني العراقية الفلكلورية المشهورة. كنا مجموعة لا بأس بها من زملاء الإعدادية الشرقية، قد شاركنا في هذه السفرة الممتعة، والتي لازالت ذكراها ماثلةً امام عيوننا حينما نستذكرها مع أصدقاء ايام زمان. وفي اعتقادي كانت هذه السفرة آخر نشاط قام به الاتحاد قبل الدخول في المجابهة المفتعلة مع الاتحاد الوطني لطلبة العراق (الواجهة الطلابية لحزب البعث)، التي اعقبها إضراب الطلبة الذي مهد لحركة 8 شباط 1963.

أحداث الثانوية الشرقية وأضراب الطلبة

بعد أن فشلتْ محاولة عبد السلام عارف في إزاحة الزعيم عبد الكريم قاسم في الأشهر الأولى من ثورة 14 تموز عام 1958، وبعد أن أُجهضت مؤامرة الشوَّاف في الموصل، وفشلتْ محاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم في شارع الرشيد، بدأ البعثيّون يُخططون للقيام بتغيير الأوضاع السياسيَّة في العراق بشكل أكثر ذكاءً وحنكةً. فتحالفوا مع القوميين العرب ورجال العهد الملكي المُباد وبعض رجال الدين والمخابرات المصريَّة والأميركيَّة، وبتمويلٍ من الكويت وشركات النفط والإقطاعيين الذين تضرروا من قانون الإصلاح الزراعي. فكان

لا بدَّ من مُشاغلة الزعيم بأحداث جانبيَّة كي يستطيعوا إلهاء السلطة من جهة ومؤازريها من جهة أخرى، كي يتمكّنوا من الاستمرار بالعمل السرِّي الدؤوب من دون أن تنكشف مخططاتُهم التآمريَّة. وكان البعثيون بارعون في قدرتهم على استغلال أي حدث أو أزمة أو أي تشريع كي يثيروا الضجَّة حوله ويستثمرونه لخدمة مشاريعهم للوصول للسلطة والانفراد بها. وهكذا استطاعوا من استثمار الخلاف ما بين الزعيم عبد الكريم قاسم والعقيد عبد السلام عارف، واستغلال الخلاف بين الزعيم والملا مصطفى البارزاني. وكما تمت الاستفادة القصوى من أحداث الموصل وكركوك وتغيير الحقائق والظهور بمظهر الضحيَّة، وإحداث الجفاء القاتل بين الزعيم والقوى الوطنيَّة وخصوصاً الحزب الشيوعي. وكانوا من أكثر المستفيدين من فتوى الراحل السيد محسن الحكيم بتكفير الشيوعيَّة، وكذلك تهويل آثار رفع أسعار البنزين بنسبة ضئيلة، والتي أدت إلى ما يُعرف بإضراب البنزين.

1964 -1963

الإتحاد العام لطلبة العراق

كان عام 1962 المدّة التي بدأ بها الإعداد الكامل للانقلاب. وكانت مناطق الكاظمية والأعظمية والكرادة الشرقية من المناطق الرئيسة التي تشهد نشاطاً سياسياً في بغداد. حيث كانت الأعظمية منطقة نفوذ قومي وبعثي والكاظمية مغلقة تقريباً للشيوعيين. أما الكرادة الشرقية فكانت منطقة صراع، حيث أنّ هناك تواجد كثيف للشيوعيين وخاصة في منطقة الزوية بينما كانت هناك هيمنة للبعثيين في منطقة البو شجاع. ولقد انعكس ذلك على ما كان يدور في مدرستي المتوسطة الشرقية والإعدادية الشرقية. ولذلك تمثل أحداث الإعدادية الشرقية وما لحقها من إعلان إضراب الطلاب كخطوة أساسيَّة في إشغال السلطة من جهة، وتهيئة مناصريهم من جهة أخرى للحدث الأكبر وهو ردَّة الثامن من شباط عام 1963.

كُنَّا في المتوسطة الشرقية نسمع منذ سنتين عمّا يتعرّض له زملاؤنا أعضاء ومؤيدي الاتحاد العام لطلبة العراق في الإعدادية الشرقية من اضطهاد واعتداء يومي من قبل البعثيين وحلفائهم. وعليه كُنَّا نتوقع أن يحدث لنا ذات الشيء، حينما ننتقل من المتوسطة الشرقية الى الإعدادية الشرقية. إلا أنّنا في المتوسطة الشرقية كُنَّا قد مارسنا النشاط السياسي مبكراً، وتمرّسنا عليه مما جعلنا أكثر استعداداً لمواجهة مثل هذه الاعتداءات. كان "الاتحاد العام لطلبة العراق" هو المنظمة الطلابيَّة الوحيدة المعترف بها رسميَّاً وعالميَّاً، والتي تمثل مصالح الطلبة والدفاع عنهم. إلّا أنّه كان شبه مجمَّد، إذ لم تَجْرِ انتخابات خلال الأعوام 1960/ 1961 والعام 1961/ 1962 .

كانتْ خطة الزعيم أنَّ الاتحاد الذي يسيطر عليه الشيوعيون سوف ينتهي بالتقادم. وحينما لم يَفُزِ البعثيون في آخر انتخابات أقيمت عام 1959/ 1960 أسسوا لهم اتّحاداً منفصلاً تحت اسم "الاتحاد الوطني لطلبة العراق". وكان الناشطون في الاتحاد العام لطلبة العراق يمثلون نخبة وطنيَّة شابة حريصة على الوطن وعلى مكتسبات ثورة تموز المجيدة. وكان من الذين تعرّفت عليهم وشاركتهم العمل

ومازلت أتذكّرهم من طلاب الصف الرابع والخامس في الإعدادية الشرقية، منهم؛ حبيب عمران وكان قياديَّاً هادئاً، ووسام شكوري شاباً نشطاً، وفريد عطو مثقفاً ملتزماً، وحكمت الدقّاق مخضرما ومُلمَّاً بمعلومات كثيرة، وسامي التكمجي رزناً وجديَّاً، ومناضل المهداوي مثقفاً وطيباً ومتواضعاً وبسيطاً، والمرحوم إحسان عبد المحسن الجلبي وقدرته الحواريَّة وهدوؤه في النقاش، وفريد قرياقوس وحماسه وطاقته على العمل والعطاء، وعلي البستاني برزانته وهدوئه في الحوار، وليث الخفّاف، وعلي عزيز، ونبيه خضر، وباسل لطفي طاهر، ولؤي ابو التمن، ووليد عبو، والعديد من الزملاء والأصدقاء الآخرين.

الثانوية الشرقية

لقد كان لوجود مناضل فاضل عباس المهداوي في الثانوية الشرقية بيننا مصدرَ اعتزازٍ ودفعٍ معنويٍّ وفخرٍ لنا، وفي الوقت نفسه كان يعد

مصدرَ تهديدٍ واستفزازٍ لسيطرة البعثيين او الموالين للاتحاد الوطني لطلبة العراق. وعليه قرروا على ما يبدو منذ بداية العام الدراسي 1962/ 1963 البدء بالحملة الاستفزازيَّة بعد انتهاء الدوام عصر كلَّ يوم. حيث يقود سيد هاشم الموسوي* مجموعة من اتباعه ويسيرون بشكل جماعي وراء مناضل ومن يسير معه ويتنمّرون علينا ويبدؤون بالشتائم على رموز محددة :

- اشتعل فهد
- اشتعل لينين
- وغير ذلك من الشتائم الرخيصة

وكان يحدث ذلك كل يوم وللأسف لم نستطع الحراك لكثرة عددهم وقلة عددنا وكبر عمرهم وأبدانهم وضعف قدراتنا البدنيَّة. لقد كانوا من الطلبة الذي رسبوا لعدة سنوات بينما مجموعتنا كانت من الطلبة المجتهدين المؤدَّبين الذين لم يمارسوا حياة الشوارع. وكُنَّا نناقش ذلك يوميَّاً مع القيادات ويطالبوننا بعدم الاحتكاك وتجنّب المشكلات. وبعد أن تعرضنا للعديد من الإهانات والاستفزازات قرّرنا في شهر كانون الثاني عام 1962 أن نأخذ بعض المبادرات ومنها التالية:

- التعرّف على مؤازرين آخرين قادمين من متوسطات أخرى مثل متوسطة الحرية ومتوسطة العرفان ومتوسطة الكرامة.
- معرفة البعثيين وبذلك معرفة غير البعثيين.
- إجراء مسحٍ عامٍّ لتحديد نسبة مؤازرينا عن مؤازريهم.

وكانت النتائج مذهلة، حيث تبيَّنَ أنَّ 70% من الطلبة هم إلى جانبنا وهي نتائج قوَّتْ من عزيمتنا ورفعتْ من معنوياتنا، وبدأنا نسأل

أنفسنا: لماذا نتحمَّل الذل من هؤلاء الذين يُهينوننا ويعتدون علينا بعد انتهاء الدوام يوميًّاً؟ وهنا بدأنا التعرّف على مجموعات كبيرة من الطلبة من غير المتوسطة الشرقية ومنهم، منير سعيد، طارق علي شيخو، هادي حسين موسى، مصطفى اسماعيل البرزنجي، سالم، ناجي عليوي، بهنام، شاكر حسين، رحيم جيوي اللامي*، فؤاد ناجي، هادي العطار، سمير سحار، عامر، ليث موسى، هادي منتظر، فريد الرماحي، عبد الأمير الحجاج، ماريين، وكثيرون لا تسعفني الذاكرة بأسمائهم. وبعد أن قوينا ترابطَ مؤيدينا في الشُعب وخاصة في الصف الرابع، قرّرنا عدم الخروج انفراداً من المدرسة، وإنّما نتجمَّع على شكل ثلاثة أو أربعة طلاب. ومع ذلك استمرَّ المهرجان اليومي في السخرية والسبِّ والشتم والاعتداء علينا.

حرب شوارع

بعد ذلك بدأتْ مرحلة الاعتداء علينا بالضرب. إذ تمَّ الاعتداء على رحيم جيوي وفريد قرياقوس وغيرهم لا لشيء، إلّا لأنّهم من الناشطين في اتحاد الطلبة. واستمرَّتْ عملية تكوين المحورين الأساسين، مجموعة البعثيين الملتفون حول سيد هاشم ومنهم ليث الرفيعي* وعصام كبة* والأخوة سالم وسلمان من الزوية ومخلص عبد الجليل (أخ غانم عبد الجليل) وطالب (الأقرط) (عديل حسن العامري وزير التجارة) وصباح البحراني. والمجموعة الثانية كانت تتجمَّع حول مناضل المهداوي لمكانته ومكانة والده العقيد فاضل عباس المهداوي رئيس محكمة الشعب.

من اليمين: طارق علي شيخو، منير، سامي التكمجي، صلاح الشريفي ومحمد حسين في الثانوية الشرقية

وحينما بدأتْ مجموعتنا تكبر عند الخروج من المدرسة بدأ سيد هاشم، يستعين بشقاوات وفتوة وأبناء شوارع الكرادة ومن طلاب ثانوية ابن حيان وهي ثانوية القسم الأدبي عكس الشرقية المخصصة للقسم العلمي، وكان نفوذ البعث فيها أكبر. وكان طلاب ابن حيان أكبر سنَّاً منّا بكثير، وذوي أجسام كبيرة، وأذكر منهم سليم الزيبق وسامي العجمي وطارق رحيم.

كان زملاؤنا حبيب عمران وفريد عطو وليث الخفاف من طلبة الصف الخامس أي من الدورة الصباحيَّة بينما الصف الرابع كان يبدأ ظهراً وينتهي عصراً. وعليه لم يروا المهانة التي كُنَّا نتعرّض لها. وعلى ذلك قرّرنا أن نأخذ الحلَّ بأيدينا. وقرَّرنا أن ندافع عن أنفسنا ونستعين ببعض الأصدقاء من خارج المدرسة. جرى الاتصال بالصديق "ابراهيم تينة" من منطقة الزوية وهو شاب مثالي قوي العود صاحب نخوة وحميَّة. واستعان عبد الأمير الخيَّاط بعامل فرن فيلي من

منطقة المسبح. وحدّدنا اليوم الذي سنتحدّاهم به ونمنعهم من الاعتداء علينا. وكانت الخطة كما يلي :

• أن نسبقهم الى الشارع المؤدي الى كرادة خارج باتجاه ساحة الفتح.

• نتوقف عند بيت كان قيد التشييد مما سيوفر الكثير من الحصى والطابوق الكسري.

• ساعة الصفر حينما يبدأ أي نوع من الاستفزاز سواء بالسبِّ او القذف او التهريج او أي اعتداء جسدي على أيِّ واحدٍ منّا.

• كان دور عامل الفرن باعتباره غير معروف، هو أن يمسك بسيد هاشم الذي كان يلبس "شماغ" على كتفيه دائما وينهال عليه بالضرب عند بدء الاصطدام.

• ثم نبدأ نحن بالهجوم بالحجارة عندما تعطى الإشارة.

وفعلاً قرَّرنا عمل ذلك من دون أخذ موافقة من جهات عُليا. وعندما بدأ موكب سيد هاشم الموسوي الاعتداء بالسبِّ والشتم، لم يستطع ناجي عليوي انتظار الإشارة، ولَمْلَمَ طابوق "كسر" في يديه الاثنتين وصاح واحد، اثنان، ثلاثة بسرعة فائقة وعمل الجميع مثله. وبدأ الطابوق والحصى ينهال عليهم كالمطر، ولاذوا بالفرار جميعاً من دون النظر الى الوراء. وكان يوماً لنا في التاريخ استطعنا أن نقف فيه بوجه الذين منحوا أنفسهم حقَّ السبِّ والشتم والضرب والاعتداء وحتى القتل. وقد أدى عامل الفرن دوره بإتقان حيث استطاع أن يمسك بسيد هاشم ويُكيل له الضربات سداداً للديون التي كان يعتدي بها على زملائنا كلَّ يوم .

استمرينا في المشي باتجاه كرادة خارج وكُنَّا في أعلى معنوياتنا فرحين للدفاع عن كرامتنا. وعلى العكس مما أشيعَ لاحقاً من أن مرافق (وليس مرافقي) مناضل ابن المهداوي قد شارك في ذلك. إذ إنَّه لا يعرف بتاتاً

بالأمر، وكانت مفاجئة له، ولم يشارك بما حدث بأيِّ شكلٍ من الأشكال. حيث كان مناضل يأتي بسيارة والده ويوصله مرافق واحد الى باب المدرسة، ثم يذهب. وعند انتهاء الدوام يأتي ليرافقه الى السيارة ليذهب الى البيت. فالمهداوي وعائلته كانوا من المستهدفين؛ وذلك لأنَّه كان رئيس محكمة الشعب التي أصدرت أحكام إعدام بحقِّ بعض رجالات نوري السعيد، ومجموعة من الذين تآمروا على الزعيم والثورة.

إعلان أضراب الطلبة

وما فاتنا أنّنا لم نحسب ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ وعلى الرغم من أنّها كانت مفاجئة، إلا أنّنا كان يجب علينا أن نتوقعها. وقبل أن يبدأ دوامنا في اليوم التالي ظهراً، وصلنا خبر عن طريق حبيب عمران الذي هو من طلبة الصف الخامس، بأنَّ مجموعة من أشقياء ثانوية ابن حيان وبمشاركة بعثيي الشرقية قد اعتدوا بالضرب المبرّح على مجموعة كبيرة من زملائنا مما أدى الى ارسال خمسة طلاب بالإسعاف الى مستشفى الطوارئ، ومنهم ليث الخفاف وفريد عطو ووسام شكوري الذين كُسرتْ أنوفهم، وطلب منّا عدم الذهاب الى المدرسة في ذلك اليوم.

وفي اليوم التالي تطوّر الأمر بسرعة ملفة للنظر. إذ صدر بيان من الاتحاد الوطني لطلبة العراق وهو الواجهة الطلابيَّة لحزب البعث، يُدين فيه "اعتداء ابن المهداوي وزمرته" على الطلبة. ويتهم فيه ابن المهداوي ومرافقيه العسكريين بالمشاركة بالأحداث، وهذا مخالفٌ للحقيقة جملةً وتفصيلاً. ويستمرُّ البيان "وبناءً عليه نُعلنُ الإضراب العام في جميع الجامعات والمدارس". وبعد ذلك توالت الأحداث واعتصم البعثيون في مقر رئاسة جامعة بغداد، وفقدنا زمام المبادرة

وأصبحنا مطاردين من قبل أشقياء وفتوة البعث في عموم شوارع وأزقة الكرادة الشرقية.

وحدثتْ لنا مشاجرات عديدة في الشوارع، واحدة منها في مدينة الضباط والأخرى في عرصات الهنديَّة، لأنَّنا كُنَّا ندور على الدراجات الهوائيَّة لتوزيع المناشير وحشد الطاقة باتجاه كسر الإضراب. قرَّرنا بعد ذلك أن نذهب للدوام ونطلب من الجميع عدم الانصياع لإضراب فُرض قسراً على الطلاب. وكان العديد من الأساتذة التقدميين يقفون بوجه منظمي الإضراب ليس لأغراض علميّة او تربويّة فقط، وإنَّما لعلمهم بأنَّ هذا الإضراب ما هو إلّا تمهيدٌ لمؤامرة كبرى. وكان من بينهم أستاذ الجبر عبد الجبار عبد السادة، ومدرس الفيزياء عادل الياس وكان قد تخرّج لتوِّهِ من كلية العلوم وكان نشطاً جدَّاً في مقاومة الإضراب، وأستاذ المثلثات البهرزي، وأستاذ الكيمياء انطوان القس.

وفي أحد الأيام وأثناء درس الجبر، حصل أن احتشد بعض الطلاب يطلبون منا أن نشارك في الإضراب. وكان أستاذ الجبر هو أستاذ علي، لا يدري ما الذي يجب أن يفعله. فما كان عليَّ إلّا أن أنبري واتصدر الصف وبدأتُ بالهتاف:

"عاش اتحاد الطلبة هوَّ ونضالاته، يسقط الاستعمار هوَّ وعصاباته"

وردَّدَ الصف معي الهتاف بمنتهى الحماس، حيث كانت شعبتي، شعبة (ط) المجيدة، شعبة على أهبة الاستعداد لمقاومتهم. وكان فيها من المتحمِّسين جدَّاً فريد قرياقوس وطارق علي شيخو ومنير وجبار سعيد وغيرهم من شباب الاتحاد النشطين. وهكذا استمرينا بالهتاف المدوِّ الذي هزَّ بصراخنا جميع أركان المدرسة. ولما يأسوا من كسرنا ذهبوا وقرعوا جرس انتهاء الحصَّة قبل الأوان. وطلبت من أستاذ علي (الذي كان قد نقل من الكاظمية لأسباب سياسيَّة) الاستمرار لأنَّ الوقت الفعلي لم ينتهِ، إلّا أنَّه آثر الانصراف.

وأصبح هناك تركيزٌ عالٍ على نشاطنا، وأخذنا نعقد اجتماعات شبه يوميَّة معظمها في بيت جد سامي التكمجي. وكان يأتينا مشرفون من قيادات الاتحاد ومنهم شهيد وعصام القاضي والزهاوي. وبدأنا نشعر بأهمية عملنا وبأنَّ الكلَّ يعوّل علينا. وطلبوا منّا أن ننظم تظاهرة في داخل الثانوية الشرقية لاتحاد الطلبة تتضمن الهتافات وكلمة يلقيها أحدنا ووقع الاختيار على وسام. وبالفعل، قمنا بالتحدي وفي إحدى الفرص تجمع نحو ثلاثين طالباً وبدأنا بالهتاف:

"عاش اتحاد الطلبة هوَّ ونضالاته يسقط الاستعمار هوَّ وعصاباته"

جاء مدير المدرسة يونس الطائي الذي كان منحازاً، وسحب حبيب عمران من التظاهرة واستمرينا بالهتاف، وبدأ البعثيون بهتافاتهم أيضاً، وقرع الجرس لبدء الحصة المقبلة، ولم تتح الفرصة لوسام لإلقاء الكلمة. كان تحدياً كبيراً وتجربة فريدة لم يتوقعها أحد.

حوار ومفاوضات

وفي أروقة الإعدادية الشرقية كان يجري حوارٌ حادٌّ بيننا وبين البعثيين. هم يقولون: إنَّ الزعيم ديكتاتور وعليكم أن تشاركونا في الثورة عليه، ونحن نقول: إنَّ هناك مؤامرة رجعيَّة استعماريَّة ضد الثورة ومكتسباتها خاصة بعد صدور بيان رقم (80) لسنة 1961، الذي حدَّدَ نشاط استثمارات شركات النفط الأجنبيَّة وحرَّرَ 99.5% من أراضي العراق كي تستثمر وطنيَّاً. يطالبوننا بالمشاركة بالإضراب ونطالبهم بإنهائه لأنَّه يُمهِّد للانقلاب على الثورة. نحن ندافعُ عن الثورة ومنجزاتها وهم يُنكّلون بالزعيم وأحداث الموصل وكركوك. وكانوا دائماً يذكروننا بأنّنا خارج الحكم حاليَّاً وأن الزعيم قد اعتقل العديد منكم، وأنَّكم أولى أن تثوروا عليه منّا. وكان هذا حقٌّ أريدَ به باطل.

وفي أحد الأيام طلب منا البعثيون المفاوضات خارج المدرسة. واتفقنا على اللقاء في منطقة العلوية في المقهى المطلّة على ساحة الجندي المجهول (سابقاً) وهي ساحة الفردوس حالياً (الموقع جزء من فندق شيراتون عشتار). وكان ممثلونا حبيب عمران وسامي وكنتُ أنا وآخرون مرافقين وحماية ومراقبين عن كثب. ومنهم كان صباح البحراني وليث الرفيعي ولا أتذكر الآخرين. وعلى كل حال هم يحاولون إقناعنا بالمشاركة في الإضراب ونحن نطالبهم بإنهائه. وعلى هذا انتهت المحادثات إلّا أنّها كانت تجربه فريدة لشباب تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة يتصرَّفون وكأنَّهم قادة حركات سياسيَّة.

حملة اعتقالات

طوق الانضباط العسكري الإعدادية الشرقية، الا انهم لم يدخلوا حرمها. وبدأنا نذهب الى المدرسة ونحاول الممانعة في ان نجعل الأضراب ينجح. حيث ان الأضراب لم يكن طوعاً في اية مرحلة من مراحله وفي اي مدرسة او كلية وانما كان البعثيون يستخدمون اساليب القسر والتهديد والضرب واستخدام اسلحة غير نارية مثل المديات وبوكسات الحديد والسكاكين. فعلى سبيل المثال تم الاعتداء على هادي منتظر وبهاء بالضرب لرفضهم الانصياع بعدم الدخول للصف. ومع ذلك استطعنا ان نكسر الأضراب وبدأ الدوام يكون شبه منتظماً وانتهت مرحلة هيمنة البعثيين على الإعدادية الشرقية.

وفي هذه المرحلة بدأت حملة اعتقالات. حيث اعتقل سيد هاشم من البعثيين، اما الباقون فإن معظمهم كانوا من جماعتنا. وكان ذلك غريباً جداً. حيث اعتقلوا حبيب عمران وبهاء ومهدي منتظر. كذلك جاء امراً باعتقالي، الا انهم اعتقلوا زميل آخر اسمه محمد حسين في شعبة (ه) عن طريق الخطأ، وهو شاب لا يتدخل في السياسة مطلقاً، كما أخبرني بذلك الزميل حكمت الذي كان في نفس الشعبة. كذلك قام الأمن باعتقال

فريد قرياقوس مع زملاء آخرين والاعتداء عليهم وتوبيخهم لأنهم من مناهضي الأضراب.

وبعد حركة 14 رمضان 1963 تم إطلاق سراح جماعتنا، ومعنى ذلك انهم اعتقلوا لوجود تلفيق في الإخبارية من انهم منظمين للأضراب وليسوا من المقاومين له. وبذلك نعلم ان البعثيين كانوا يحاربوننا بشتى الوسائل، وان يدهم كانت تطول اجهزة الأمن والشرطة اضافة الى الجيش.

التدخل المصري

وكان ملفتاً للانتباه أيضا أن الإذاعات المصريَّة وخاصة إذاعة صوت العرب ومديرها سيء الصيت أحمد سعيد كانت مهمته الأساسيَّة هي معاداة العراق والزعيم عبد الكريم قاسم وتسميته "قاسم العراق". كان الرئيس جمال عبد الناصر مركزاً بشدّة على معاداة الزعيم، وذلك باتهامه بالتحالف مع الشيوعيين والشعوبيين ضد آمال الوحدة العربيَّة التي كان ينادي بها. وكان البعثيون يتظاهرون من أنّهم من المؤمنين والمدافعين عن زعامة عبد الناصر للأمة العربيَّة، إلّا أنّهم أثبتوا عكس ذلك حين اعتلوا منصّة الحكم.

كذلك دعمت سفارة الجمهوريَّة العربيَّة المتّحدة وهذا كان اسم مصر وسوريا اثناء الوحدة) الإضراب عن طريق الترويج له وطبع المنشورات لهم في السفارة، مما اضطر الحكومة العراقيَّة الى طرد أحد الملحقين في السفارة في يوم 24 كانون الثاني 1963 أي قبل خمسة عشر يوماً من انقلاب 8 شباط 1963. كذلك تمَّ الهجوم على رئاسة جامعة بغداد التي كان البعثيون معتصمين بها مما أدى إلى اعتقالهم وكان من بينهم شخص أعرفه من كربلاء اسمه مهدي مغنص من كلية اللغات، وهو صديق لِابن خالتي ناجي عبد الحسين.

مقابلة وزير التربيَّة

ونتيجة لاعتقال زملائنا قرَّرنا أن نقابل وزير التربيَّة والتعليم اسماعيل العارف. إذ ذهبنا أنا وسامي ومناضل وعلي وربما شخص آخر الى ديوان الوزارة في منطقة السراي في باب المعظم. وطلبنا من السكرتير مقابلة الوزير ممثلين عن الاتحاد العام لطلبة الثانويَّة الشرقيَّة. استقبلنا الوزير في مكتبه من دون تردّد او تفتيش او تحقيق. وقلنا له إنَّ سلطات الأمن قد اعتقلت العديد من زملائنا، ونحن ضد الإضراب ولسنا معه. وشرحنا له أحداث الشرقيَّة التي كنا نحن فيها ضحايا ولم نكن المعتدين. وبيَّنا له من أنَّ الإضراب كان مفروضاً بالقوة على الطلبة وليس طوعيَّاً. كان الوزير ينظر إلينا بتعجّبٍ وعيونه التي تشبه عيون النمر، تلمع مع ابتسامة وقورة في وجهه. وربما كان لسان حاله يقول ما الذي يفعله مراهقون بهذا العمر في مكتبي ويتكلّمون وكأنَّهم ساسة في البرلمان البريطاني. وفي الختام شكرنا لحضورنا وطالبنا أن نركز على دروسنا وصافحنا مودعاً. خرجنا من مكتبه غير مصدقين أنَّهم لم يعتقلونا، حيث كان ذلك وارداً جدَّاً في حساباتنا.

توضيح:

• كان سيد هاشم الموسوي* وليث الرفيعي* وعصام كبة* من أكثر البعثيين ثقافةً وإيماناً، ولذلك بعد حركة 18 تشرين 1963 تركوا حزب البعث واتّجهوا يسارا وتعرَّضوا للاعتقال من قبل البعث بعد 1969.

• انتقل رحيم جيوي اللامي* الى الفريق الآخر وأصبح رئيساً للاتحاد الوطني لطلبة العراق في جيكسلوفاكية للأسف الشديد، إلّا أن سمعته كانت طيبة بين الطلبة.

• هذا سَرْدٌ للأحداث كما شاهدتُها وعاصرتُها وإنّي لمتأكدٌ من أنَّ هناك الكثير من الأحداث الأكثر قساوةً مرَّ بها زملاء آخرون.

• تكتب هذه السطور بعد ستين عاماً من حدوثها. معذرة أن كانت بعض التفاصيل غير دقيقة أو تحمل بعض الأخطاء.

• أتمنى من الذين عاصروا هذه الأحداث من كلا الطرفين أن يعقّبوا ويضيفوا ما لديهم من معلومات.

• ذكر الأسماء الصريحة ليس الغرض منه التفاخر أو التشهير، وإنَّما للتوثيق وإثبات المصداقيَّة.

مظاهرة السلم في كردستان

لقد قسَّمت القرارات الدوليَّة أبَّان الحرب العالميَّة الأولى الشعب الكردي بين عدة دول هي تركيا وإيران وسوريا والعراق. وعلى الرغم من الكثير من الوعود والآمال التي أعطيت لهم من قبل الدول الكبرى، إلّا أنَّها لم تَرَ النور. وبطبيعة الحال فإنَّ هذه الدول الأربع لا تقبل بأقل من الولاء الكامل لها من دون قيد او شرط. لذلك بقيت مناطق كردستان في هذه الدول الأربع مناطق غير مستقرة، عصيانٌ هنا وتمرّدٌ هناك، جمهوريَّة صغيرة هنا ودوليَّة هناك. كل ذلك يدفع ثمنه غالياً الشعب الكردي، ويكلّف الدول التي ينتمون اليها الكثير من الأرواح واستنزافا للموارد البشريَّة والاقتصاديَّة.

ومن بين مكتسبات ثورة 14 تموز عام 1958 للشعب الكردي، أنّها نصَّتْ في الدستور المؤقت الذي صدر في 27 تموز 1958، في مادته الثالثة على "أنَّ العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن، وأنَّ حقوقهم القوميَّة معترفٌ بها في هذا الدستور ضمن الوحدة العراقيَّة". أما المكسب الثاني فهو عودة الملا مصطفى البارزاني وعائلته ورفاقه من

الاتحاد السوفيتي للعراق معززين مكرَّمين، وتسكين الملا في بيت نوري السعيد وإقرار رواتب سخيَّة لهم، ومنحهم حقَّ ممارسة النشاط السياسي عن طريق تشكيل الأحزاب وإجازة الصحافة الناطقة باسمهم. وفي حقيقة الأمر أنَّ الأكراد - ممثلين بقياداتهم - كانوا الأوفر حظاً برعاية الزعيم عبد الكريم قاسم وقادة ثورة تموز من الأحزاب الأخرى مثل الحزب الشيوعي والحزب الوطني الديمقراطي.

إلّا أنَّ الأمور بدأتْ تتغيَّر تدريجيَّاً، نتيجة تشجيع شاه إيران للأغوات الذين هربوا الى إيران، للعودة الى كردستان العراق، وإحداث قلاقل وإثارة أحداث مع البرزانيين، كي تُستخدم حجّة للتدخل الأجنبي، ساندين بذلك شركات النفط، التي بدأت تتضايق كثيراً من المفاوضات بشأن حقوق العراق من واردات النفط، وقانون رقم (80) لسنة 1961. شخصيتان متعنتتان لعبتا دوراً كبيراً في عدم قراءتهم للأحداث والكوارث المترتبة على ذلك الخلاف، هما عبد الكريم قاسم والملا مصطفى البارزاني. استعجل البارزاني في طلباته وإلحاحه في الحصول على كلِّ شيء اليوم وليس غداً، وتكبَّر الزعيم على جميع القوى التي أرادتْ تهدئة الأمور والوصول الى حلول وسط للحفاظ على الوحدة العراقيَّة .

تطور الخلاف بين الزعيم عبد الكريم قاسم والملا مصطفى البرزاني والقيادة الكرديَّة مما أدى الى اشتعال نار الحرب بين الجيش العراقي وقوات البيشمركة. وقد أحرج هذا الخلاف القوى الوطنيَّة؛ ولذلك طالبت الجهتين بالمفاوضات السلميَّة لضمان حقوق الأكراد من جهة والحفاظ على عراق موحّد من شماله الى جنوبه من جهة أخرى .

ولكي نوصل صوتنا الوسطي الحريص على عدم سفك دماء العراقيين قمنا بالعديد من النشاطات في نهاية عام 1962 وبداية عام 1963. من بين ذلك ما يلي:

-ذهبتُ بعد منتصف أحد الليالي وكان معي ابن عمتي حسن وعبرنا سياج الإعداديّة الشرقيّة، وخطينا باللون الأحمر على الجدران الخلفيَّة للمدرسة أهم شعار في تلك المرحلة وهو: السلم في كردستان.

-نظّمنا وفوداً طلابيَّة من مدرستنا لزيارة محامين وأطباء وتجار في شارع الرشيد، لا على التعيين. وفودٌ على شكل ثلاثة أو أربعة طلاب بأعمار بين الأربعة عشر والستة عشر عاماً. نطلب الحديث معهم في مكاتبهم. وفي معظم الأحيان يستغربون من طبيعة الزيارة التي يبدأها أحدنا بالقول: إنَّ هناك حرباً دامية في شمال العراق بين الجيش العراقي والأكراد، ونحن نرى أن المشكلة يجب أن تُحلَّ سلميَّاً وليس عن طريق الحروب، ونطالب أن يكون هناك دور للمثقفين أمثالكم، كي يرفعوا صوتهم مطالبين بوقف القتال وإحلال السلام في كردستان، واللجوء الى المفاوضات ومنح الأكراد ما يستحقون من حقوق ضمنها لهم الدستور المؤقت لعام 1958، ضمن وحدة التراب العراقي. استغراب وانبهار كامل من قبل الأطباء والمحامين والتجار لمنطقنا الذي لم يكنْ يتلاءم مع عمرنا. بعد ذلك تكون الإجابات مختلفة تبعاً لانتمائهم السياسي واهتمامهم بما يحصل على أرض الواقع، وقسم منهم ينصحوننا بالتركيز على دروسنا في الوقت الحالي.

-استمرار القتال في كردستان بين حليفين للقوى الوطنيَّة والتقدميّة هما الزعيم عبد الكريم قاسم، والملا مصطفى البارزاني، لم يكنْ سهلاً. والتمركز في خندق وسطي حريص أدى الى نقمة الجهتين على القوى التقدميَّة بدلاً من تقديرهم للموقف التوفيقي الذي لم يحرز أيَّ نجاح. لذلك قرَّرَ الشيوعيون أن يتظاهروا في سط بغداد مطالبين السلطة بالسعي لإنهاء القتال واللجوء الى المفاوضات. بدأت المظاهرة من سينما النصر، مروراً بمنطقة البتاوين وساحة النصر، ثم في قلب بغداد مروراً بسينما السندباد وساحة التحرير، ومن تحت نصب الحرية باتجاه شارع الكفاح كي تنتهي التظاهرة في ساحة

الطيران. كانت من أطول وأقوى المظاهرات التي شهدتها بغداد ومن أكثرها تنظيماً وانضباطاً، على الرغم من محاولات شرطة الأمن بالملابس المدنية اختراقها وكسرها عدّة مرَّات عن طريق إطلاق النار في الهواء واعتقال بعض المتظاهرين.

كما أنَّها كانت آخر نشاط سياسي جماهيري سبق حركة 8 شباط عام 1963. ومن بين أهم الهتافات التي اعتلت بأصوات المتظاهرين كان:

يا شعب طفي النيران السُلم في كردستان

الانتكاسة الكبرى

محطات مؤلمة من ذكريات شباط الأسود

ردَّة شباط 1963 وتداعياتها

لم يمضِ من الوقت كثيراً حتى سمعنا ما كان متوقعاً. ففي يومٍ ظلاميٍّ قاتمٍ، هو يوم الجمعة 8 شباط 1963 وفي الساعة التاسعة صباحاً والمصادف الرابع عشر من رمضان، أذيع البيان رقم واحد وبيان رقم (13) المشؤومان، وبذلك دخل العراق في بحر من الدماء، اغتيل في إثره زعماء ثورة تموز المخلصين من الذين مازالوا في السلطة مثل الزعيم عبد الكريم قاسم والزعيم الركن الطيار جلال الأوقاتي والزعيم عبد الكريم الجدّة والعقيد طه الشيخ أحمد والمقدم كنعان حدّاد، او الذين كانوا مُبعدين عن السلطة، إلّا أن إخلاصهم دفعهم للالتحاق للدفاع عن الثورة، مثل العقيد فاضل عباس المهداوي ووصفي طاهر. واستشهد خيرة أبناء الشعب العراقي أثناء المقاومة للانقلابيين في العديد من معسكرات الجيش وفي المحلات الشعبيَّة الموالية للثورة والزعيم عبد الكريم قاسم، تصدّرتها مدينة الكاظميَّة الباسلة ومحلة عكد الأكراد مدينة الأكراد الفيليَّة، والشاكريَّة مدينة الفقراء والكريمات مدينة المناضلين. أو من أستشهد لاحقاً تحت وطأة التعذيب الوحشي في قصر النهاية او في مقار الحرس اللا قومي

في الأعظميَّة والكرَّادة والكاظميَّة وعموم مدن العراق. وتمَّ اعتقال وفصل الآلاف من أفضل مهني موظفي أجهزة الدولة مثل المعلّمين والمهندسين والأطباء وخيرة الاكفاء من موظفي أجهزة الدولة. ودخلنا نحن طلبة الإعداديّة الشرقيّة الذين لم نكنْ سوى شباب بعمر المراهقة، والعديد من أساتذتنا الوطنيين مرحلة جديدة من الاعتقالات والتحقيقات والمضايقات التي لا تعد ولا تحصى لمدة تسعة أشهر سوداء مقيتة حتى

انقلاب عبد السلام عارف على البعثيين في يوم 18 تشرين الثاني 1963.

تسعة أشهر سوداء لم يُغسل عارُها بعد، لأنَّه وحتى هذا اليوم وبعد أكثر من ستين عاماً لم يُحاسب او يُعتقل أو يُحاكم او يُؤنّب أيُّ شخصٍ على الجرائم المُعلنة وغير المُعلنة ضد مناضلي الشعب العراقي عموماً وضد الزعيم عبد الكريم قاسم ورفاقه الشهداء، وشهداء الحركة الوطنيَّة. ولم يَجْرِ أيّ تعويضٍ معنويٍّ أو ماديٍّ لمن سُجنوا وعُذّبوا وقُتلوا، ولمن شُرِّدوا وهاجروا وخسروا أوطانَهم الى الأبد.

كذلك لم يَقُمْ ممن تضرَّروا وعُذّبوا وأهالي من استشهدوا، او الحركة التي ينتمون اليها بأيِّ عمل لمحاسبة ومعاقبة مرتكبي هذه الجرائم او الانتقام منهم. الجرائم التي أودتْ بحياة الآلاف من مثقفي العراق الوطنيين من خيرة الأطباء والمهندسين والمعلّمين والعمال الكادحين والطلبة اللامعين. وكذلك أدتْ الى فصل عشرات الآلاف من وظائفهم ومعظمهم أنهى بقية عمره في السجون أو جالساً في البيوت او مهاجراً لدول أخرى مثل سوريا واليمن وليبيا والخليج ثم انتقلوا الى أوروبا وأميركا بعد أن ضاقت بهم الأمور. خسارة لا تعوَّض يظهر أثرها بوضوح لِمَا آلَ إليه العراق اليوم من تخلُّفٍ وإرهابٍ وفسادٍ وطائفيَّة. وإليكم بعض الذكريات المؤلمة لأحداث تلك الفترة السوداء كما شاهدتُها وعايشتُها:

اليوم الأول

لم يكنْ يوم الجمعة 8 شباط عام 1963 يوماً عاديَّاً كباقي أيَّام الجمع التي نرتاح فيها ونستيقظُ متأخّرين، لأنَّه اليوم الوحيد الذي تُعطل فيه المدارس والدوائر الحكوميَّة والأعمال التجاريَّة. ولكن في ذلك اليوم استيقظنا مفزوعين ونحن نسمع نشيد "الله أكبر"، وغيره من الأناشيد الحماسيَّة المصريَّة من إذاعة بغداد مُعلنةً حدوث ثورة

شعبيَّة ضد الدكتاتور الأوحد عبد الكريم قاسم وزمرته من الشيوعيين عملاء موسكو (عَلمنا لاحقاً أن المذيع كان هو المجرم حازم جواد). وأعلن البيان من أول لحظة مقتل الزعيم عبد الكريم قاسم. وبدأ بتلاوة برقيات التأييد التي كانت معظمها كاذبة. أخذنا الجفول والهلع وسيطر علينا إحساسٌ غريبٌ وكأنَّ الموت قادم إلينا لا محالة، وأن قوى الشر والظلام ستأخذ العراق الى ما لا تُحمد عقباه. وتذكرتُ كم كان حدثاً كهذا متوقعاً، وقد حُذر الزعيم حول هذا الموضوع مرارا وتكرارا خلال الأشهر الثلاث التي سبقت اليوم الأسود.

وعلى الرغم من اعتراض أهلي، إلّا أنَّني قرَّرتُ الخروج والذهاب من الكرَّادة الشرقيَّة الى مركز بغداد. وانتهى بي المطاف في الباب الشرقي حيث كان هناك الكثير من الناس متجمعين قرب محطة باصات الأمانة بداية شارع الرشيد وقرب جسر الجمهوريَّة، وكان الصحفي "مجيد الراضي" يقرأ بيانا من الحزب الشيوعي على جمهور حوله وعلى شاكلة وثبة كانون عام 1948، وانتفاضة تشرين عام 1952، وربما الثورة الفرنسيَّة بكلِّ حماسٍ وغضبٍ على أن "إلى السلاح لسحق المؤامرة الاستعماريَّة الرجعيَّة...". كنتُ أعرف الخطيب حيث كنا موقوفين معا في القلعة السادسة من الموقف العام وبقضية التجارب النوويَّة نفسها في صيف عام 1962. "إلى السلاح"، ومن أين يأتي السلاح؟ منذر الونداوي يقصف الدفاع من الجو، ودبابات التآمر تزحف على بغداد وبوادر ميليشيات البعث (الحرس القومي) بدأت باحتلال ومحاصرة مناطق حسَّاسة من بغداد. بعد ذلك سمعنا كيف أنَّ الزعيم رفض تسليح الجماهير التي ذهبت الى وزارة الدفاع للذود عن ثورتهم، وللأسف الشديد، فإنَّ الزعيم اعتبر نفسه، أنَّه المسؤول الأول والأخير عن حماية الثورة ومكتسباتها وليس الشعب.

عبرتْ قوات عسكريَّة من ذوي البيريات الحمراء عند الظهيرة، جسر الجمهوريَّة وتمركزوا عليه. وكان الجميع في ساحة التحرير يسمعون الإذاعة بانتظار حدوث تغيير وتُذاع بيانات مضادَّة، ولكن لم يحدث

ذلك. وبقينا على هذه الحال بانتظار السلاح او تعليمات أخرى، ولكن لم يصلنا أيُّ شيءٍ بعد البيان الأول. بدأت التجمعات البشريَّة تقلُّ تدريجيًّاً نتيجة يأسها وسماعها بيانات منع التجول. ذهبت الى أحد الجنود من ذوي البيريات الحمراء وسألته إن كانوا مع الانقلاب أم مع الزعيم؟ فقال لي: إذهب الى بيتكم، فإنَّ هناك منع تجول. وعندها أيقنت أنَّهم مع الانقلاب وأنَّهم الفرقة المظليَّة الرابعة بقيادة عبد الكريم مصطفى نصرت الضابط البعثي المعروف.

بعد ذلك بدأتُ كغيري رحلة العودة الخائبة الى البيت. مشيتُ باتجاه سينما السندباد، وركبتُ تكسي نفرات "كرَّادة خارج" متجنِّباً "كرَّادة داخل" الذي تصورت أنه ستكون به مضايقات نتيجة سيطرة البعثيين عليه. وكانت سيارات كرَّادة خارج تمرُّ عبر الشارع الوسطي لعرصات الهنديَّة. وحال مرورنا من بداية العرصات رأينا مجموعة من المدنيين يحملون رشاشات بور سعيد ووضعوا على أيديهم يافطة خضراء مرسومٌ عليها حرفان (ح ق)، علمنا لاحقاً أنَّها مختصر "حرس قومي". كانت هذه المجموعة بقيادة طارق عزيز التي طوَّقت بيت الشهيد العقيد فاضل عباس المهداوي، محاولةً اغتياله ومنعه من الخروج للدفاع عن الثورة، مثلما فعلوا واغتالوا قائد القوة الجويَّة العقيد جلال الأوقاتي. إلّا أنّه خرج واقتحم الطوق وذهب لوزارة الدفاع واستشهد لاحقا مع ابن خالته ورفيق دربه الزعيم عبد الكريم قاسم. كنت أعرف عائلة المهداوي لأنَّه كان لي شرف التعرُّف على ابنه مناضل المهداوي الذي كان زميلاً وصديقاً منذ الصف الأول في المتوسطة الشرقيَّة وحتى هذا اليوم. وكان لي شرف التعرُّف على الشهيد المهداوي وعائلته المتواضعة حينما نلتقي في بيتهم بعض الأحيان. وأتذكّر أنَّه أعطاني صورة له مكتوب عليها "إهداء الى المناضل الصغير محمد حسين"، ومن هذا الإهداء انتقيتُ اسم هذا الكتاب. وللأسف الشديد اضطررنا الى إحراقها مع العديد من الكتب والمجلات الثقافيَّة.

اليوم الثاني

لقد كنتُ في الصف الرابع ثانوي في الثانويَّة الشرقيَّة في الكرَّادة الشرقيَّة، أي أنَّني كنتُ طفلاً او مراهقاً في عمر الخمسة عشر عاما، حينما بزغ علينا هذا الفجر الأسود، فجر 8 شباط عام 1963. فجر أسود ويوم أسود وتسع شهور سوداء كالحة مخضَّبة بدماء أشرف العراقيين. وفي مساء يوم 9 شباط ضاعت كل الآمال باحتمال فشل المؤامرة حينما شاهدنا الزعيم الوطني عبد الكريم قاسم جالساً على كرسي في استوديوهات الإذاعة العراقيَّة في الصالحيَّة، فاتح العينين متحدياً غير متخاذل، وهو مرميٌّ برصاصات الغدر والخيانة من قبل من عفى عنهم، وإذا بعريف تافهٍ يبصقُ على وجه الزعيم السمح المتواضع الخجول. وكان مشهداً مروِّعاً، حيث أنَّ المهداوي كان في الأرض غارقا بدمائه، وهناك ضباط آخرون مقتولون بشكل همجي وبطريقة بدائيَّة مثل العقيد طه الشيخ أحمد والمقدّم كنعان حدّاد. والأدهى من ذلك يعرضون ذلك على شاشات التلفزيون بكلِّ فخرٍ واعتزاز. كانت صورة الزعيم جالساً بكلِّ هيبةٍ فاتحاً عينيه متحديَّاً المتآمرين عليه دلالة على كبريائه وعدم إذلال نفسه أمام هؤلاء الخونة. إلّا أنَّه مع ذلك كانت نهاية الأحلام الكبيرة وبداية الكابوس الأبدي الذي مازال يعاني منه الشعب العراقي.

بيان رقم (13)

مضت الساعات والأيام ببطء ثقيل، وفي كلِّ دقيقة يزداد شعورنا بالعجز وتتصاعد الأفكار المتشائمة والتساؤلات، ما الذي حدث، وكيف حدث، وما العمل؟، ونستمع الى "هناء العمري" بصوت يعكس كرهاً وحقداً وبنفس متشمت داعياً للقتل والإجرام. وهي أخت حفصة العمري التي قُتِلَتْ في أحداث حركة الشوَّاف، لتُعلن بيان رقم (13) سيئ الصيت الذي أباح وهدر دم العراقيين ليس لعمل قاموا به او قد يقومون به، وإنَّما لمجرد أن يكونوا والشك في أن يكونوا من

الذين يؤمنون بالحريَّة والديمقراطيَّة والعدالة الاجتماعيَّة. وهو بيانٌ فاشيٌّ بامتياز، يكفي أن يكون دليلاً على إدانة كلّ السلطة الانقلابيَّة بتهمة الإبادة الجماعيَّة.

ناكري الجميل

ومما كان يدعو للألم والاستغراب الشديدين أن إحدى برقيات الاعتراف بالانقلاب، جاءت من "أحمد بن بلة" أول رئيس جزائري بعد الاستقلال، الذي استقبله الزعيم بحفاوة عام 1962، كما استقبل أيضاً المناضلتين "جميلة بوحيرد" و"زهرة ظريف". كيف يمكن أن يحدث ذلك، والكل يعلم أنَّ الزعيم منح الجزائر أول سرب طائرات عسكريَّة لدولة المليون شهيد. والبرقيَّة الأخرى بعثها الملا مصطفى البارزاني، الذي أرجعه الزعيم من المنفى وأسكنه في بيت نوري السعيد معزّزاً مكرَّماً، وجعل الأكراد شركاء في الوطن بنصٍّ في الدستور المؤقت. كذلك سمح وأسهم البارزانيون وحزب البارتي باضطهاد الحزب الشيوعي وهو الحزب الوحيد الذي يؤمن بعدالة المطالب الشرعيَّة للشعب الكردي والتي أشغل نفسه دفاعاً عنها واعتبرها من قضاياه الأساسيَّة والتي اختلفوا فيها مع الزعيم. كذلك قامت مجموعة صغيرة من حزب البارتي بالتظاهر في شارع الكفاح تأييداً للانقلاب، بينما كان الشيوعيون يقاومونه في عكد الأكراد وباب الشيخ التي كان معظم سُكَّانها من الأكراد الفيليين. كذلك قام الفلسطينيون بتأييد الانقلاب والانخراط بصفوف الحرس القومي، علماً أنَّ العراق وبأمرٍ من الزعيم كان البلد المؤسس للجيش الفلسطيني، وخصَّصَ العديد من المقاعد في الكلية العسكريَّة العراقيَّة للفلسطينيين لتخريج ضباط ليكونوا نواةً لهذا الجيش، ناهيك عن الدور المشرّف للزعيم في حرب فلسطين عام 1948 المعترف به من قبل الجميع.

الزعيم عبد الكريم قاسم مع جميلة بوحيرد وزهرة ظريف، 1962.

سلسلة الاعتقالات

الاعتقال الأول

وبعد عدّة أيّام وبعد رفع منع التجول في ساعات النهار، صدرت الأوامر عن طريق الراديو والتلفزيون، بعودة الموظفين لوظائفهم والطلاب الى مدارسهم. وعلى الأغلب كان ذلك يوم الاثنين الحادي عشر من شباط. وما كان عليَّ إلّا أن أذهب الى مدرستي، الى الإعداديّة الشرقيّة التي كانت لها حكايتُها في أحداث إضراب الطلاب الذي

أستُخدم للتمهيد للمؤامرة الكبرى على العراق. وصلت باب المدرسة وكانت الباب مغلقة ويقف خلفها حفنة من الطلبة بقيادة طالب العامري (الأكرط) وهو عديل وابن عم حسن العامري، عضو القيادة القطرية لحزب البعث والذي أصبح وزيراً للتجارة لاحقاً. فتح طالب باب المدرسة وبيده خنجر موجه الى وجهي، وقال: "هله شوفوا منو إجا، وصاح: ألزموه"، وإذا بيَّ ارمي كتبي بوجهه الكالح وأسقطتُ الخنجر من يده، وهربتُ باتجاه كرّادة داخل ثم يسارا في اول شارع فرعي ثم يسارا مرة ثانية باتجاه كرادة خارج وكان الشارع فارغا من المارّة موحشاً، وكل الأبواب مغلقة. شعرتُ فيه برهبة الوحدة واللا قوة وبدأتُ اسمع صوت سيارة تُقاد بسرعة جنونيَّة وينزل منها أربعة من عُتاة الطلبة، انهالوا عليَّ لكماً وركلاً، وأسمعوني كلمات حقد دفين وألفاظا شارعيه بذيئة غير مبرّرة لزميل لهم، وإن اختلف معهم في آرائه السياسيَّة.

نادي النهضة الرياضي

أخذني هؤلاء الأبطال الأشاوس الى نادي النهضة الرياضي الذي أضحى مقرّاً لعمليات الحرس القومي. والحرس القومي ميليشيات مسلحة معظمهم من شباب البعث، منحوا أنفسهم صلاحيات دستوريَّة وقضائيَّة وأمنيَّة. سلَّموني إليهم وكان في الباب أيضاً بعض من طلاب الشرقيَّة الذين أحسنوا الترحيب بالشتائم الرخيصة. وكان نادي النهضة معروفاً بأنَّه واجهة لتنظيم البعث في منطقة البو شجاع كرَّادة داخل. وكان عبارة عن ساحة كبيرة منخفضة عن مستوى الشارع العمومي وبعض الغرف للإدارة. طلبوا منِّي الاصطفاف مع الآخرين من هم من مثلي والذين ميّزت بعضهم آنذاك. وكان هناك مذياعٌ ومكبراتُ صوتٍ تنقل [illegible] جلس قيادة الثورة وإعلا [illegible] موتور. وكان

ميليشيا الحرس القومي غير النظامية 1963

يُسمع منهم صوت المذيع قاسم نعمان السعدي ومذيع فلسطيني اسمه توفيق وكُنيته توفيق الأعور وآخرين.

وبين الحين والآخر يُقطع الصوت ليقول المذيع المحلي في النادي إنَّه "إذا استطاع أيُّ موقوف او محتجز من أن يحصل على تزكية وكفالة من شخص معروف لديهم (أي بعثي) فمن الممكن إخلاء سبيله بهذه الكفالة". وبعد فترة جاء شخص أعرفه يوزع علينا الماء ولم يكنْ بملابس الحرس القومي، وإنّما ببدلة ورباط وأناقة جيدة. إنَّه عبد العزيز جابر البزاز وهو ابن تاجر معروف في الشورجة ومحلهم بجوار محلنا ونعرف بعضنا جيداً، وأخوه فائق جابر البزاز عضو القيادة القطريَّة لحزب البعث وكان مقره في نادي النهضة. وحينما وصل ناحيتي طلبتُ منه أن يكفلني ولكنّه اعتذر. فقلتُ له لماذا ألّا تعرفني؟ فقال نعم أعرفك، ولكن لا دورَ لي هنا، فقلتُ له: إنَّ أخاك هناك وهو مسؤول كبير، فقال ولكنّك كنتَ موقوفا في عهد قاسم، معنى ذلك أنَّك شيوعيٌّ، فكيف أكفلك؟ واعتذر بأدبٍ ولم أرَهُ بعد ذلك.

ثم جاء سيد هاشم الموسوي وكان مسؤول البعث في الثانويّة الشرقيّة وكان مسجوناً وأطلق سراحه بعد 8 شباط، واتّجه نحوي وكان يضع يشماغاً على رقبته كعادتِهِ، والحماس بادٍ عليه ونظر نحونا ورآني وهزَّ برأسه هزَّة ذات معاني خُلاصتها أنَّنا انتصرنا وأنتم خسرتم. المهم اتّجه نحونا وطلبتُ منه أن يتكفّلني بوصفي زميلاً له في الدراسة، وكان جوابه: أنظر الى ذلك الشخص إنَّه أخي وهو موقوفٌ وسوف لن أتكفّله لأنَّه شيوعيٌّ مثلك، قال ذلك ورحل. وكنتُ أعرف أخاهُ كان خياطاً في البو شجاع ومعروف بآرائه التقدميَّة.

واسطة الخير

انتهى النهار واظلمت الدنيا علينا وبدأ القلق يساورني أكثر، وفكرتُ بأنَّ أهلي ربما عرفوا الآن ما حدث لي وعسى أن يفعلوا شيئاً. وفعلاً

عند المساء جاء حسين حبيب المهداوي الملقّب بحسين الأعور وكان صاحب محل بقالة مقابل مدرسة الحريَّة الابتدائيَّة في سبع قصور - كرَّادة داخل. وكان أخوه أكرم حبيب المهداوي عضو فرع بغداد بحزب البعث ويسكنون في شارعنا في سبع قصور. المهم تكفّلني، وكنتُ مستغرباً كيف حدث هذا. وأخذني بسيارته وأوصلني الى البيت وتلقتني أمي المسكينة وهي تنظر إليَّ بشموخٍ وكبرياءٍ وفخرٍ. ولكنّي كنتُ أرى الخوف والقلق والآلام في داخلها. أمَّا أبي فلم يقل شيئاً وكان لا يطفئ سجارتَهُ إلّا بأخرى مثلها. أما أنا فقد أحسستُ بعمق الكارثة من أنَّها ليستْ انقلاباً ضد الزعيم عبد الكريم، وأنَّ عبد السلام عارف أصبح رئيساً وانتهى الموضوع. كلا، إنَّها عملية تصفية جسديَّة وفكريَّة وحضاريَّة، ستكون جذريَّة ومستمرَّة، لكلِّ ما حدث بين 14 تموز عام 1958 و8 شباط 1963. وعلمتُ يقيناً من أن المقبل أهول وأتعس، وقصة كفالتي هذه لن تشفع لي كثيراً. وسألتُ والدي كي استطعت إقناع "أبوعلي" كي يتكفّلني؟، فقال: إنَّ حسين سبق وأن عمل عند جابر البزّاز في سوق الشورجة، وحدثتْ له مشكلات معهم وتوسّطت له وساعدته وهو يردُّ الجميل، و(ألف خلف الله عليه). وكان ذلك نهاية الكلام. لا لوم ولا عتاب ولا حتى أيّ نوعٍ من الحوار العقلاني. كانت تلك هي طريقتهم في إسنادي معنويَّاً وشدَّ أزري وتخفيف حدَّة خوفي ورعبي من الآتي المجهول المعلوم.

الاعتقال الثاني

سمعتُ صخباً وضجيجاً وأنا في الحمام أغتسل. أغلقتُ صنبور الماء، وتوقفتْ يدايَّ عن الحركة كي أسمع ما الذي يدور خارج جدران الحمَّام. لم يخُنِّي حدسي، ميزتُ الأصوات الهمجيَّة وهي تُعربد "وين ابنچ"، "إنَّه في الحمَّام، على كيفكم"، "هسه أطلب منه يتنشف ويطلع". طرقتْ أمي عليَّ باب الحمَّام، وقالتْ: "إبني خَلْص بسرعة، ونشف نفسك، أجوْ عليك المقاومة الشعبيَّة". نهرها أحدهم بصوتٍ

عالٍ: "خاله، إحنا مو مقاومة شعبيَّة، إحنه حرس قومي"، "عفواً ابني آني شمعرفني". كنتُ أتوقّع قدومهم، ولكن ليس بهذه السرعة .

ناولتني أمي ملابس دافئة، لبستها على استعجال، وخرجتُ من باب الحمام، لأرى أمي واقفةً وَسَط المدجّجين بالسلاح، والمنفوخين بغرور الغزاة العتاة. واقفة وسطهم بكلِّ شموخٍ وكبرياءٍ، من دون ضعفٍ أو بكاءٍ، من دون توسّل أو انحناء، تنظر نحوي بزهوٍ وافتخار، غير عابئة بصراخ إخوتي الصغار. قلتُ لنفسي: هذهِ أمّي، ولو لم أكنْ أعلم أنَّها لا تقرأ ولا تكتب، لقلتُ إنّها قد قرأت قصة "الأم" لمكسيم غوركي ألف مرَّة وتفوقتْ عليها .

حينما خرجتُ من الحمام، نظر إليّ بعض الحرس باستغراب، لأنَّهم لم يعرفوا الشخص الذي جاؤوا لاعتقاله. تصَوروه عملاقاً ذا عضلات مفتولة كهرقل أيّام زمان، وله شوارب كشوارب ستالين المبرومة، وربما يلبس عدسات رؤية من كثرة القراءة والكتابة كعدسات تروتسكي، أو أنَّه ذو شعرٍ كثيفٍ منفوش، كشَعر شاعر الشعب بحر العلوم. إلّا أنّهم صُدِموا حينما رأوا ضحيتهم، بوداعة الحمل الصغير، وأناقة الطالب المجتهد الذي يجلس دائماً في الصفوف الأماميَّة. هل خجل أحدهم من نفسه؟ لا أعتقد ذلك. إلّا أنَّهم أخذوا الحمل الوديع إلى حظيرة الذئاب المفترسة، من دون أيّ ورعٍ أو عذاب للضمير.

خرجتُ معهم من باب الدار، حيث أذهلني المنظر، ثلاث عربات عسكريَّة مسلَّحة مملوءة بالحرس القومي المدجّج بالسلاح، كي يعتقلوا، مراهقاً لم يبلغ السادسة عشرة من عمره. الجيران واقفون أمام أبوابهم، لا يعرفون السبب، تفاجؤوا حينما شاهدوهم يقتادون شاباً يافعاً، معروفاً في محلّته بحسن أخلاقه، واستقامة سلوكه، ومن أفضل شباب الجيران.

حوار مع صلاح عمر العلي

إقتادني الحرس إلى نادي النهضة الرياضي ثانية، وطلبوا منّي الانتظار في ساحة النادي المكشوفة. كان الجو بارداً نديَّاً، مع رذاذٍ من المطر يتساقط علينا بين الحين والحين. صادف ذلك يوم الخميس الرابع عشر من شباط "يوم الحب" عام 1963، عامٌ لا حُبَّ فيه ولا سلام ولا وئام. بدأتُ أفكر مع نفسي، وأحسب لكل شيء ألف حساب. هذه المرة لا تنفع لا واسطة ولا صديق ولا قريب ولا جاه ولا مال. وتذكرتُ "بافل" في قصّة الأم لغوركي، لا بل تذكرتُ أمي الشامخة بكل هيبة وعنفوان، واستمديتُ منها معنويَّة لا يقهرها أعتى العتاة. جاء حاملاً بندقية كلاشنكوف وابتسامة منتصر على وجهه وسحب كرسياً وجلس جنبي، كي يحدثني عن الخلاف العقائدي بين الصين والسوفييت، وأنه يرى أنَّ الخط الصيني هو الأصحُّ. تحدثتُ معه، ولديَّ علمٌ أنّه أحد المشرفين الكبار على أركان وكر نادي النهضة

الظلاميّ، من طريقة كلامه ومن سلاحه المتميز. موضوع الخلاف العقائدي بين التوجه الصيني والسوفيتي في ذلك الوقت كان يستهلك الكثير من قراءاتنا وطاقاتنا؛ لذا حاورته بجدارةٍ أذهلت مسؤول ذلك المكان، الذي عُرف بعد ذلك أنّه من توَّابي البعث في هذا الزمان. وفي النهاية نهض وقال لي حينما قالوا لي بأن اسمك جاء ضمن الاعترافات وأنّك عضو مهم في التنظيم لم أصدق، ولكن من خلال حديثي معك الآن أصدق وضحك وتركني. علمتُ لاحقاً بأن هذا الشخص لم يكن إلا "صلاح عمر العلي التكريتي" عضو القيادة القطريَّة ومسؤول قاطع الكرادة الشرقية عام 1963، والذي أصبح عضو قيادة قطريَّة وعضو مجلس قيادة الثورة ووزير الإعلام بعد انقلاب 1968.

جاؤوا بصديقي وزميلي مناضل المهداوي بعد حين، والتقتْ عينانا ومنحنا بعضنا البعض نظرات دعم معنوي، من أنّنا على حقٍّ على الرغم من هذه الانتكاسة البشعة، وكان يبدو عليه الاتّزان والصمود

والكبرياء، على الرغم من أنَّهم قد عرضوا مشاهد على شاشات التلفزيون لوالده العقيد فاضل عباس المهداوي رئيس محكمة الشعب، مقتولاً بشكلٍ وحشيٍّ ووجهه مخضّب بالدماء.

تأخّر الليل وكان بارداً رطباً يتخلله رذاذٌ من المطر بين الحين والآخر. وبدأتُ أفكر بأنّي انزلقت في الحديث وكشفتُ نفسي مع صلاح التكريتي وعليَّ أن أكون أكثر حرصاً. كذلك علمتُ منه أنَّ هناك اعترافات وعليَّ التفكير بكيفيَّة مواجهتها. وكان التفكير هو التعامل بذكاءٍ وعدم كشف أية معلومات جديدة. كُنَّا نرى في التلفزيون اعترافات بعض القادة، مما أدى الى ضعف الروح المعنويَّة والشعور بالخسارة واللا جدوى من القيام بأيِّ شيءٍ يذكر. هنا لا أتوقع أن يأتي حسين المهداوي وينقذني مرّة أخرى، فلن يستطيع حتى لو أراد.

التحقيق في مكان مجهول

فرش الظلام الرطب عتمته، في تلك الليلة من إحدى ليالي الأشهر التسع المقيتة، وفي هذه الأثناء جاؤوا بالعديد من المعتقلين الذين جرى ترحيلهم الى حيث لا يعلم أنسٌ ولا جان، إلى أن جاء دوري. نقلوني بعد الساعة العاشرة ليلاً إلى بيتٍ خربٍ مهجورٍ من دون علامة أو رَقْم أو بيان، قريب من شاطئ أبي نواس في منطقة البو شجاع في الكرّادة الشرقيّة. أنزلني المدجّجون بالسلاح، حماة الوطن من خطر "المثقفين المخلصين" على مستقبل عروبة وادي السلام، في تلك العُتَمَة من الليل، في ذلك الدِّهْلِيز المظلم، وطلبوا منِّي أن أجلس بانتظام، وانتظر دوري كي أحلَّ في ضيافة المحققين اللئام.

مكانٌ سرِّيٌّ ممكن أن يحدث فيه أي شيء (ولا من شاف ولا من درى)، ووضعوني في النظارة وبدأتُ اسمع أصوات الصراخ والضرب والشتائم. وكنتُ اسمع صوت طلقات ناريَّة لأنَّه مازالت بعض جيوب المقاومة مستمرة في منطقة الكريمات التي لا يفصلنا عنها سوى نهر

دجلة. كذلك كان البعض يقاوم بسلاح شخصي عند الاعتقال. وبعد ساعتين او ثلاث جاء دوري وأدخلوني الى لجنة التحقيق وعرفتُ من بينهم جاسم البحراني، وهو من شباب البو جمعة منطقة البوليس خانة، وقال لي: إنَّ هناك اعترافا عليك، وإذا تعترف نبعثك الى البيت حالاً. وكان جاسم يعرفني شكلاً وأني كرَّادي وشاب صغير، حاول أن يساعدني ويمهّد لإخلاء سبيلي. وقال لي مرة ثانية وثالثة من أنَّ هناك اعترافات بأنَّك مسؤول تنظيم الثانويَّة الشرقيَّة. نكرتُ ونكرتُ، ثم قال لي: هل تريد أن أجلب لك الشهود؟ قلتُ، نعم.

أخرجوني من غرفة التحقيق الى النظارة بانتظار وصول الشهود. ومنذ أن قال لي صلاح التكريتي بأن هناك اعترافاً عليَّ، ولعلمي أنَّ ما ذكره حول موقعي في التنظيم كان صحيحاً، كان شغلي الشاغل هو كيفيَّة التعامل مع هذه الاعترافات من دون كشف ما هو غير معلوم ومن دون إلحاق أي ضرر بالآخرين او التنظيم. وبعد منتصف الليل جاؤوا بأحد زملائي وأوقفوه أمامي، وقالوا له هل تشهد بكذا وكذا؟ قال نعم. هل أنَّ محمداً كذا وكذا؟ قال نعم. نظرتُ الى زميلي وهو بالبجامة والروب، يرتجفُ من الخوف والرعب وأشفقتُ عليه وعلى نفسي كثيراً، وكنتُ على وشك أن أعتذر منه، لما سببته له ولعائلته من أذى في هذا الليل المقيت. وسألوني إن كنتُ أريد شاهداً آخر، فقلتُ كلا. قُلت ذلك لأنني لا أريدهم أن يعرّضوا زميلاً وصديقاً آخر لموقف ذلٍّ وإهانة ويعرّضوا أهلهم للخوف والرعب في هذا الليل البارد الرطب الثقيل.

وهنا أدخلوني الى غرفة التحقيق مرَّة أخرى، وسألوني هل أوافق على ما قاله زميلي من أنِّي كذا وكذا؟ قلتُ، نعم. وهل أنَّك مسؤول عن آخرين؟ قلتُ، كلا. هل تعرف تنظيمات أخرى في الشرقيَّة؟ قلتُ، كلا. وهنا سألني جاسم البحراني، لماذا انتميت لهذا التنظيم بدل أن تكون بعثيَّاً؟ فكرتُ وقلتُ لنفسي لن أقع في الفخ مرَّة أخرى، وأجبتُ بسذاجة من أنَّني كنتُ أتصور أنَّكم تريدون تسليم العراق لمصر. وهنا

قال جاسم "انتوا غلطانين، كل عقلكم احنه نتعب ونسلمها لمصر"، أعطاني محاضرة عن البعث والثورة وما سيقومون به من إصلاحات. طلبتُ منه إذا انتهى التحقيق أريد الذهاب الى أهلي كما وعدتني. فقال جاسم يجب أن تقدم براءة من الحزب كالآخرين كي يُطلق سراحك، فقلتُ له هذا لا يمكن. قال: لماذا؟، قلت: لأنَّها إهانة شخصيَّة، وعلى أية حال كان هناك صراع بيننا وبينكم، انتهى بانتصاركم، وكل شيء مكشوف لكم الآن وأنّي أعدكم، بأني لن أقوم بأي نشاط سياسي. لم يتقبّل سبب رفضي، وألحَّ عليَّ جاسم بكتابة البراءة، فرفضتُ وتحججتُ بأنَّها إهانة شخصيَّة ولا دخل لها بالسياسة، ولا أريد أن يعرف الناس أنّي كنتُ يوما ما منتمياً، ولا أريد أن يكون لي سجل سياسي. وأثناء ما كان هذا الحوار المخيف محتدماً بيننا، وإذا بأصوات عالية تلعلع من أنّهم قبضوا على فلان لا أتذكر اسمه. وبدأ نوع من الفوضى او الاحتفال وصاح جاسم بأحد الحرس أن يأخذني الى البيت، وكان الوقت في حدود الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وكنتُ في سيارة حرس قومي وأوقفونا عدّة مرّات، لإعطاء كلمة السر الى ان وصلنا البيت أثناء سريان ساعات منع التجول .

حال وقوف السيارة أمام منزلنا رأيتُ نور سجارة أبي من وراء الستائر، حيث غرفة نومهم تطلُّ على الشارع. وأنّهم مازالوا ينتظرون ابنهم البكر كي يعود. نعم عُدتُ ولكن لم أعد نفس الشخص الشامخ المتكبّر الواثق من نفسه. لقد كسرونا وأذلونا وحطّموا معنوياتنا. ولكنّهم ليسوا على حق ولم نكنْ نحن على باطل. ومع أني كنت فخوراً بنفسي من انني لم أعطِ براءة، ولم اكشف أية معلومات تنظيميَّة، إلّا أنني كنت أتمنى أن لا أوافق حتى على اعتراف الآخرين، وكنت أشعر بالذنب لأنّي مازلتُ على قيد الحياة ويستشهد الآخرون. كان أبي في حالة هلع بادية عليه ولم يستطع قول أي شيء. أما أمي فكانت تحضنني وتشدُّ أزري وخائفة عليَّ، ليس منهم وإنّما من نفسي. ولذلك أخفت خوفها ولم يلمني أحدٌ على شيء ولم يقولوا لي لماذا عملتَ هكذا بنفسك وبنا؟ وهذا شيء لم أستطع فهمه بالكامل حتى الآن.

طبعاً علمتُ أن عملية إطلاق سراحي تمت بوساطة أبوعلي مرّة أخرى. وبما أنّني أعلم من أنّني لم اعترف بشيء سوى قبولي لما قاله زميلي في اعترافه، وبما أنني أعلم أن هناك الكثير ممكن ان يكتشف وان الأمور لا نهاية لها، بدأتُ بحملة لتنظيف البيت من كل الكتب والكراريس والصور والمناشير الموزعة والمخبأة في عموم أرجاء البيت، فولعنا الحمام نهار يوم الجمعة وكانت حملة مخجلة لأننا نحرق الثقافة بدل أن ننشرها. إلّا أنّها كانت ضرورية وحرقت ما يزيد على ثلاثين كتابا ومئات الممنوعات. وقررتُ ان ابتعد عن أصدقائي وزملائي كي لا أعرض نفسي او أعرضهم لأي خطر. وبعد أيّام ذهبت الى المدرسة محاولا تجنّب المشكلات. ولكن حينما رآني بعض البعثيين، لم تعجبهم عودتي إطلاقا. المشكلة الكبرى هو أنَّ الكل يعرفني، الأعداء والأصدقاء، ومن ثم فإنّ كل حركاتي مرصودة. ورغم محاولتي السير جنب الحائط كما يقول المثل، إلّا أن ذلك لم يمنع زملائي من أن يسألوني، ما الذي حدث لك؟ ما هو الجديد؟ وما العمل؟ وكنت أحاول أن أفهمهم أنَّ عليهم الهدوء لفترةٍ ما، ولكن لم أنجح، وأتذكر منهم الزميل فريد قرياقوس الذي كان في شعبتي وكان طيباً ومُلحّاً لدرجة خطيرة، ويريد أن يفعل شيئاً ما.

تحت المراقبة والتحقيقات اليومية

بعد الدوام تحدثتُ الى سامي وقال لي إنَّ تنظيم النساء ما زال فعّالاً، وعلينا أن نجمع تبرعات لهم. كانت أخته وخالته تعمل بنشاط في هذا المجال. وفعلاً حاولنا جمع بعض التبرعات، وإذا بشباب الاتحاد الوطني يلاحظون ذلك ويأخذوني الى غرفتهم وبدأ التحقيق في أنني أقوم بإعادة التنظيم. طبعاً نكرت، وقلت: نعم هناك حديث وزملائي يسألونني عمَّا حدث لي في الاعتقال، وأنا أقول لهم ما حدث ونحن أصدقاء وزملاء قبل كل شيء. قالوا إنّنا نحذرك وأنّك تحت المراقبة وأنّه غير مسموح لي أن أتحدث مع أي طالب، وكان على رأس هذه

المجموعة ليث الرفيعي (الذي أصبح يساريّاً وانضمَّ الى تنظيم القيادة العامة تنظيم عزيز الحاج لاحقاً).

وبعد عدة ايام سحبني سيد هاشم الموسوي من الصف وكان مسؤول البعث في الشرقيَّة، وجاء بزميلي وهو "نبيه خضر"، وطلب منه أن يعترف، وطلب منّي أن أشهد عليه، ولكني أنكرت وأنكر نبيه ارتباطه بالتنظيم، وهددنا سيد هاشم بأن يأخذنا الى مقر الحرس القومي والتحقيق معنا هناك. ومع ذلك أنكرنا، وأخيرا طلبتُ من سيد هاشم الانفراد للحديث مع نبيه، فوافق، وقلتُ لنبيه إنّه لا اعتراف عليه، وعليه أن ينكر وإلّا ستستمر سلسلة الاعترافات، واتفقنا على ذلك. وعدنا الى سيد هاشم وقلتُ له إنَّ نبيه يقول إنّه لا علاقة له وأنا أصدقه، ونحن زملاؤك في المدرسة وتحت رقابتك وحمايتك، فماذا ستفعل بنا؟ ولماذا تريد أن تعاقبنا؟ وأخيرا ألقى علينا محاضرة تهديديَّة وتركنا. والحقيقة أن سيد هاشم الموسوي كان من الممكن أن يعرضنا للأذى، ولكنّه لم يفعل ذلك، وهذه دلالة على حسن أخلاقه وتربيته.

كنتُ التقي مع سامي بعد دوام المدرسة، وأتجول في عرض الكرَّادة وطولها باستخدام الدراجة الهوائيَّة. ولم يلقوا القبض على سامي لأنّه لم يأتِ الى المدرسة وكان يسكن في بيت جدّه وليس في بيت أهله. وكانت تأتي معلومات إليه من خلال تنظيم النساء، ولكن كانت المسألة تضعف كل يوم نتيجة الاعتقالات التي شملت تنظيم النساء أيضاً.

السفر الى الاتحاد السوفيتي

بعد 8 شباط تمَّ إطلاق سراح كل البعثيين الذين كانوا في المعتقل والمشاركين في إضراب الطلبة. والغريب هنا أنّه تمَّ إطلاق سراح بعض زملائنا المعتقلين قبل الانقلاب عن طريق الخطأ، ومنهم حبيب

عمران وهادي منتظر وبهاء وغيرهم. واتصلتُ بحبيب وبقي في البيت كي لا يعلم أحد بإطلاق سراحه. وعلى ما يبدو أنّه أطلق سراحهم، لأنّهم أساساً اعتقلوا بوشاية على أنّهم من منظمي الإضراب وليس من معارضيه. وكنتُ كل يوم التقي بصديقي وزميلي صلاح الشريفي، وكان جارٌ لنا. وكان حريصاً عليَّ وخائفاً على مصيري. وذات يوم قال لي: محمد عليك بالسفر الى خارج العراق لأنّك متورط في قضايا كثيرة وكبيرة، وقد سَلِمْتَ مرَّة ومرَّتين، لكن الله الساتر "موكل مرة تسلم الجرّة". وقلت له كيف وأنا ممنوع من السفر أصلاً؟، فقال ولا يهمك، أنا أعرف جماعة في الأمن يعملون لك جوازاً باسم لا يكون عليه منع والكلفة 30 دينارا. فكرتُ في الموضوع مليَّاً وقررت ان لا أسافر لا لشيء سوى أنني كنت مغروساً في تربة وطني وحبِّي الخاص لأمّي وتقديري لأبي ومسؤوليتي اتجاه أخواتي وإخوتي لأنّني كنت الابن البكر. وأخذ صلاح يقنعني كثيراً، وقلت له أريد منك أن تساعدني بأن نُسفّر زملاء آخرين. وذهبنا أنا وصلاح الى مدينة الضباط والتقينا بمناضل المهداوي، وعرضتُ عليه مسألة تسفيره الى الاتحاد السوفيتي، إلّا أنَّه رفض. وأعتقد أن شعوره اتجاه عائلته الموجوعة باستشهاد أبيه ومسؤوليته باعتباره الابن الأكبر وحبّه الشديد لوطنه منعه من ذلك. تركنا دارهم وشعرتُ بالغثيان، وأخذت أتقيَّأ وأحسّ بطعمٍ مُرٍّ في فمي. ذهبنا من هناك الى العيادة الطبيَّة في منطقة إرخيته في الكرّادة، وسألني الطبيب: ماذا أكلت هذا الصباح؟ فقلت له: جبن أبيض، فقال: إنَّه تسمم ويجب أن تخضع لغسيل معدة في المستشفى الجمهوري. قلتُ لصلاح لا بدَّ أن يكون كل أهلي قد تسمّموا، علينا الذهاب الى البيت وأخذهم جميعا الى المستشفى الجمهوري وهذا ما حصل. ونحن هناك جاء والدي بمساعدة أحد موظفيه، إذ إنّه تعرّض للتسمم أيضاً. وقد كان في حالة متردية جدَّاً.

وفي الأيام التالية عرضتُ موضوع السفر على سامي وحبيب ووافق الاثنان على السفر، وأخذنا منهما صورا شمسيَّة، وذهبنا الى مكتب في شارع الرشيد قرب سوق الصفافير. وبعد عدّة أيام تمَّ تسليم

الجوازات، ودفع سامي المطلوب إلّا أن حبيب سافر من دون أن يودعنا للأسف الشديد، ولم يدفع ثمن الجواز. وهذا ما أحرجنا مع أناس من هذا النوع وانتهينا أن اعطيناهم ما نستطيع تجنباً للمشكلات!

إعدام سلام عادل ورفاقه

كُنَّا نرى بعض القادة على شاشات التلفزيون ممن انهارت قواهم أمام هول التعذيب، وكان عدنان جلميران وحمدي أيوب أكثرهم تجريحاً وإذلالاً. سمعنا باعترافات هادي هاشم الأعظمي الذي كشف ثلاث وعشرين داراً حزبيَّة، كان من بينها الدار التي يسكنها سلام عادل. وكان يوم 9 آذار يوم إعلان استشهاد سلام عادل وحسن عوينة ومحمد حسين ابو العيس أكثر الأيام حزناً وارباكاً وضعفاً، وفي الوقت نفسه كان يوم شرف واعتزاز وكبرياء لأنّهم والجميع يعلم استشهدوا تحت وطأة أبشع أنواع التعذيب ولم يخذلوا الوطن والقضيَّة. وعلى الرغم من الخسارة الكبيرة باستشهاد سلام عادل والعديد من رفاقه منهم محمد صالح العبلي وجورج تلو وعبد الرحيم شريف وحمزة السلمان ونافع يونس والمئات غيرهم، تحت وطأة أبشع ألوان التعذيب، إلّا أنّها كانت ترفع رأسنا وتُعلي معنوياتنا وتمنحنا الثقة مجدداً بالحركة والقيادة .

وبدأت أسماء المجرمين الذين كانوا يمارسون التعذيب والقتل تنتشر بين صفوف العامة والمناضلين بشكل خاص. ومن بين هؤلاء المجرمين الذين حصلوا على خمسة نجوم لإجرامهم: ناظم كزار، منذر الونداوي، عبد الكريم الشيخلي، محسن الشيخ راضي، مدحت إبراهيم جمعة، هاشم قدوري، بهاء شبيب، نجاة الصافي، علي صالح السعدي، عمار علوش وغيرهم كثيرون.

كنتُ أنتظر انتهاء السنة الدراسية بفارغ الصبر كي أتخلّص من عيون اللئم والنظرات الخبيثة من قبل البعثيين الذين كانوا يبالغون بشماتتهم فينا ومضايقتهم لنا. كذلك كان من الصعب تجنب الزملاء الذين يلحّون بالتساؤل والاتصالات ولا يقدرون أنَّ الظروف قد تغيّرتْ كليًّاً. لقد أصبح زملاؤنا الذين نختلف معهم في الرأي، ممكن أن يلقوا القبض علينا اعتباطيًّاً في أية لحظة يشاؤون، ويلقوننا فريسة للوحوش الكاسرة. وعليه فإنَّ انتهاء الامتحانات النهائيَّة وحلول العطلة الصيفيَّة كان من أكثر العطل التي كنتُ تواقاً إليها.

حركة حسن سريع 3 تموز 1963

انتهى العام الدراسي في حزيران 1963، ولا أدري كيف نجحتُ هذا العام. وكالعادة وفي كل صيف أذهب للدوام مع أبي في سوق الشورجة. وصدفة التقيت بزميل تعرّفتُ عليه في القلعة السادسة في الموقف العام في باب المعظم. والتقينا في مقهى شعبي عشوائي، في شارع الجمهوريَّة قرب جامع بنات الحسن. وكان مهدي حبيب من عمال الخياطة الناشطين، ويعمل في شارع الرشيد في معمل للخياطة قرب شارع المتنبّي، وقد زرتُهُ عدّة مرّات. وكان على اتصال بمجموعة سليم الفخري، وطلب منّي أن أهيئ ملابس عسكريَّة، حيث أنَّ هناك حركة مرتقبة ممكن أن تحدث في أية لحظة، وعندها ألبس ملابس جندي والتحق حسب الأوامر. وكان لديَّ بنطرون خاكي وحذاء أسود، وذهبتُ الى سوق السراي لشراء قميص وسدارة كشافة. وأصبحنا نلتقي في الأسبوع مرّتين على الأقل في المكان نفسه وأحيانا مع شخص ثالث هو شكر الله، من الأخوة الفيليَّة، إذ لا يعرفنا أحد وهو قريب على الشورجة.

سمعنا بحدوث حركة في معسكر الرشيد في اليوم الثالث من شهر تموز 1963، وقيل إنَّ قائدها أبو سلام خبّاز في سبع قصور بمعنى في ناصية شارعنا. وبدأت أفكر، أهي الحركة التي وعدنا بها مهدي أم لا؟ وللأسف الشديد سمعنا بعد ذلك أنّه قد تمت السيطرة عليها وأن الحركة لم تنجح. وبطبيعة الحال فإنَّ من المؤكد ستعقب ذلك حملة اعتقالات جماعيَّة، خوفاً من حركات مماثلة في المستقبل. قررت السلطة الجائرة بأن ترسل جميع معتقلي سجن (رقم واحد) الى (نقرة السلمان)، مع التخطيط أن يموت معظمهم في الطريق. إلّا أنَّ سائق قطار الموت الشهم وأهالي السماوة الطيبين والمتعاطفين مع المعتقلين أفشلوا المخطط ولم يستشهد سوى الرائد يحيى نادر من أهالي أربيل. كانت حركة حسن سريع تعتمد اعتمادا كليَّاً على تحرير السجناء السياسيين في سجن (رقم 1) ومعظمهم قياديون، وعدد كبير منهم عسكريون وطيارون في القوة الجويَّة .

وفي يوم 4 أو 5 تموز، اتصلت أمي بأبي يرحمهم الله تلفونيَّاً لتقول له بأنَّ الحرس القومي جاؤوا بثلاث سيارات وطوّقوا البيت يبحثون عنّي لاعتقالي. وقلت لأبي ما العمل؟ فقال الأفضل أن تذهب الى حسين المهداوي (الذي توسّط لي عدّة مرّات)، وهو يقول لك ماذا تعمل. طبعاً حسين هو حرس قومي وأخ أكرم المهداوي عضو قيادة فرع بغداد في حزب البعث، الذي أصبح مدير تربية بغداد. ذهبتُ الى أبو علي حسب توصية أبي وثقته بحسين. وحينما رآني حسين، استغرب وارتبك، وقال لي ماذا تفعل هنا؟ قلت له بأن أبي بعثني إليك كي ترشدنا. وهنا رأيت علامات اندهاش وخوف عليه ونظر الى أعلى حيث كانت الشقة العلوية في تلك البناية مقرّاً للحرس القومي وكان هو نفسه بملابس الحرس القومي. فقال لي وبجديَّة لا تقبل الشك "إذهب من هنا واختفي عند أقارب لك بعيداً عن الكرادة الى أن تصفى الأمور". ركبتُ الباص وذهبت الى منطقة النواب في الكاظميَّة الباسلة التي قاومت الانقلاب لعدة أيام وكان آخر المقاومين فيها الشهيد سعيد متروك الذي شهد له الجميع بالشهامة والبطولة وسمعت عنه

الكثير من حسين المصفايجي في الشورجة. كذلك كنت اسمع من حسين المصفايجي ما قام به جماعة الخالصي من تصفيات في سراديب جامعهم ومدرستهم الدينيَّة. وذهبتُ الى بيت خوالي محسن وكريم وخالتي حياة وجدّتي. وبقيتُ عندهم واستمريت في الذهاب الى الشورجة صباحاً والمبيت في الكاظميَّة مساءً.

الشهيد أبو سعيد

في يوم 19 تموز أذيع بيان آخر معلناً فيه إعدام كوكبة ثلاثيَّة أخرى من القيادة هم: جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي وعبد الجبار وهبي (المعروف بأبو سعيد ووالد الفنانة أنوار عبد الوهاب). كان هذا البيان مزعجاً بشكلٍ خاصٍ لي لأنَّ أبو سعيد كان أستاذي في الصف الثالث المتوسط لموادِ الرياضيات والعلوم، أي قبل ستة أشهر. إذ إنّه بعد منتصف السنة الدراسيَّة أي قبل عام من ردّة شباط، سمعنا من البعثيين أن أستاذاً شيوعيَّاً خرج من السجن توَّاً، وسوف ينقل كي يُدرّس في المتوسطة الشرقيَّة. وأنّهم مستعدون له كي يجعلوا منه مسخرة. أما نحن فتهيّأنا للدفاع عنه. وفي أول يوم وأول محاضرة، دخل الصف وكأنَّه عالم او قديس. كان قصير القامة يلبس نظارات طبيّة، ملتزم السلوك، هادئاً جدَّاً وفي منتهى الوقار. استطاع تحويل المادة العلميَّة الى مادة سهلة ومفهومة ومقبولة لا بل ومحبوبة. وانتهت السنة الدراسيَّة معه من دون أن يستطيع أي شخص مهما امتلك من الجسارة او قلة الأدب أن يتفوّه معه بأي كلام استفزازي. من جانبه ظلَّ أستاذاً علميَّاً ولم يطرق باب السياسةِ إطلاقاً، علماً أنَّ بقية الأساتذة الآخرين كانوا يتحدثون بها خاصة بعد انفصال سوريا عن الوحدة مع مصر.

حركة 18 تشرين الثاني 1963

بدأت الشائعات حول وجود خلاف بين التنظيم العسكري والتنظيم المدني في حزب البعث في شهر تشرين الأول 1963. ثم تطور ذلك الى صراع بين معظم أعضاء القيادة القطريَّة والجيش من جهة، وبين علي صالح السعدي ومعظم قيادة بغداد مدعومة من قبل الحرس القومي والنقابات والتنظيمات المدنيَّة من جهة أخرى. وعلى أثر ذلك أصبح الكلام في العلن. قسم يطالب بحلِّ الحرس القومي والآخر يعتبر ذلك مؤامرة على الثورة (على حدِّ تعبيرهم). وجاء ميشيل عفلق ومجموعة القيادة القوميَّة للتوسّط بين الفريقين المتنازعين، وأعلن منع التجول ونزل الحرس القومي للشوارع واحتلَّ الساحات الرئيسة في بغداد ومعظم المدن العراقيَّة.

وحينما احتدم الصراع البعثي البعثي، كان عبد السلام عارف، ومن خلال موقعه كرئيس جمهورية (غير بعثي) يُفكّر بطريقته التآمريَّة للانقضاض على البعث بخطوتين، الأولى استخدام كل ضباط الجيش والشرطة بضمنهم البعثيون ضد الحرس اللا قومي (على تسميته)، والخطوة الثانية هي عزل الضباط البعثيين النشطين. ففي يوم 18 تشرين الثاني سنة 1963، أعلن عبد السلام عارف حلَّ الحرس اللا قومي وتسميتم بـ "المنحرفون"، متهما إيَّاهم بارتكاب أبشع الجرائم بحقِّ الشعب العراقي، ومعلناً تغييراً وزاريَّاً عازلاً فيه علي صالح السعدي والوزراء البعثيين المدنيين مثل حازم جواد وطالب شبيب ومبقياً على العسكريين ومنهم طاهر يحيى وصالح مهدي عمَّاش وأحمد حسن البكر وحردان التكريتي. وكان يبدو للتوِّ من أنَّ البعث باقٍ في الحكم، إذ لم يصدر أي بيان ضد حزب البعث، وإنما الحركة تبدو وكأنَّها ضد الحرس القومي فقط. وقد لعب عبد الرحمن عارف دوراً أساسياً في الزحف على بغداد مصحوباً بتأييد عشائر الأنبار، خاصة عشيرة الجميلات المنتشرين في منطقة أبو غريب غرب بغداد. بعد ذلك طُلب من أفراد الحرس اللا قومي تسليم السلاح والبقاء في

البيوت. وهذا ما تمَّ من دون مقاومة تذكر على الرغم من كل السلاح والعتاد الذي كان بحوزتهم.

جرائم مرَّتْ بلا عقاب

تسعة أشهر سوداء لم يُغسل عارها بعد، لأنَّه وحتى هذا اليوم بعد أكثر من ستين عاماً لم يُحاسب أو يُقاضى أو يُعتقل أو يُؤنَّب على الجرائم المعلنة وغير المعلنة، بحق الشعب العراقي عموماً وبحق الزعيم ورفاقه الشهداء، وشهداء الحركة الوطنيَّة. ولم يجرِ تعويض معنوي او مادي يذكر، لمن فُصلوا وعُذّبوا وسُجنوا، ولمن شُرّدوا وهُجّروا وخسروا أوطانهم الى الأبد. كذلك لم يقم ممن تضرروا وعُذبوا وأهالي من استشهدوا او الحركة التي ينتمون اليها بأي عمل لمعاقبة مرتكبي هذه الجرائم. الجرائم التي ألحقت الأذى بحياة الآلاف من مثقفي العراق الوطنيين، وكذلك أدتْ الى فصل عشرات الآلاف من وظائفهم ومعظمهم انتهى مهاجراً لدول أخرى. خسارة لا تعوّض يظهر أثرها بوضوح لما آل عليه العراق اليوم من جهل وإرهاب وفساد وطائفيَّة.

ولا بدَّ لنا من أن نستذكر ما عاناهُ معنا أهلُنا وهم يرون أبناءهم يُسحبون من البيوت الدافئة ليكونوا بأيادٍ لا تعرف القانون ولا الرحمة والشفقة. أمي وأبي من بين هؤلاء المساكين الذين لم يدّخروا وسعاً في تربية أبنائهم علميَّاً وأخلاقيَّاً. ولكنّهم كانوا أكثر من ذلك، فأمي كانت فخورة ومتعالية على وضاعة الزمن التافه الرخيص، وأبي كان صامتاً قليل الكلام لكنه كان دؤوباً على أن يُخرجني من المآزق ودائماً يسحبني في آخر لحظة من بين أنياب الذئاب. ولم يلمني أيٌّ منهما على أفعالي وأفكاري، رغم الأذى الذي ألحقته بنفسي وبهما. فعذراً ولو بعد فوات الأوان، فشموخكِ يا أمي كان زادي وملحي، وصمتُك يا أبي كان صوتاً

عالياً وعَلَمَاً مرفرفاً لما هو حق وعدل. وعذراً وألف عذرٍ لأنَّ للشموخ والصمود ثمناً، وربما كان سبب فراقكم لنا قبل الأوان ما سببناهُ لكما من قلق وأسى ورعب وخوف. وعذرنا أنّنا لم نسعَ إليه وإنما جاء إلينا من دون خجل أو وجل، لأنَّ المجرمين لا يطرقون الأبواب ولا يستأذنون حسب العرف والآداب. وعذراً لأنّنا لم ننتصر، وخسرنا المعركة والصراع، وخسر العراق معنا مستقبله وآماله الكبيرة، ليتحول الى بلدٍ ممزّقٍ عرقيَّاً وطائفيَّاً ومناطقيَّاً وعشائريَّاً ولتكون الصحة والثقافة والنظافة والنزاهة والوطنيَّة في أدنى مستوياتها.

مقالات وآراء

يوم تحولت النوادي الرياضية الى معتقلات
"جرائم ما زالت بلا عقاب"

يوم الجمعة 8 شباط 1963، المصادف الرابع عشر من رمضان من ذلك العام. إنَّه اليوم الذي اغتيلت فيه ثورة الرابع عشر من تموز عام 1958 وسُفكت دماء قادتها ومناصريها. إنَّه اليوم الذي وجدت فيه السلطة الخائنة أن قوى الأمن والشرطة والمخابرات غير كافية لاعتقال الآلاف من الشباب. لذلك جنَّدوا مؤازريهم ووضعوا على زنودهم يافطات عار مكتوب عليها (ح. ق.) رمزاً لتسمية (حرس قومي)، يافطات مكتسبة من الحركة النازيَّة في ألمانيا والفاشست في إيطاليا. سلّحوهم بغدارات بورسعيد التي هرّبتها لهم مصر، عن طريق سوريا كي تستخدم لإرجاع عجلة التاريخ الى الوراء بعد أن شهد العراق تقدماً اقتصاديَّاً وانفتاحاً اجتماعيَّاً خلال أربع سنوات من عمر الجمهوريَّة الفتيَّة.

فما كان من الحرس القومي إلّا أن يغزوا المصانع والمدارس والدوائر والحارات ليجمعوا كل ما هو غير بعثي او قومي. لم يجدوا أماكن تكفي لتجميع المعتقلين، فحوّلوا النوادي الرياضيَّة الى مراكز اعتقال وتحقيق وتعذيب وقتل. وليس نادي النهضة الرياضي في الكرّادة الشرقيّة والنادي الأولمبي في الأعظميَّة وملعب الإدارة المحليَّة في المنصور إلّا نماذج تشهد على ما نقول. وحينما امتلأت النوادي الرياضيَّة، سيطروا على بيوت سكنيَّة وحوَّلوها الى مقارَّ حرس قومي، منها ما هو علنيٌّ ومكشوفٌ للعامة، ومنها ما هو سرّيٌّ ومخصصٌ للتحقيقات التي تؤدي الى نهايات فاجعة. أمثلة على ذلك، بيوت أستُخدمت سرّاً للتحقيق في منطقة البو شجاع في الكرَّادة الشرقيَّة، ومنها ما عُرِفَ للشعب رغم عدم رسميته مثل "قصر النهاية" الذي ارتُكبتْ به أبشع جرائم التعذيب والقتل، مما يندى لها جبين الإنسانيَّة. جرائم لم يسبق أن قام بمثلها حتى جستابو هتلر أو فاشست موسوليني.

هذه الجرائم التي أرتُكبتْ، معروفٌ جُناتُها، ولكنَّها مازالتْ تنتظر من يُحقّق فيها ويحاسب مرتكبيها، حتى وإن كان معظمهم قد فارق الحياة، لإحقاق حق من أستُشهدَ على أيدي هؤلاء المجرمين، وليكونوا عبرة للتاريخ. مجرمون ما زالت أسماؤهم ترنُّ في آذاننا، أمثال: منذر الونداوي، نجاة الصافي، عمار علوش، خالد طبرة، ناظم كزار، علي صالح السعدي، حازم جواد، طالب شبيب، أبو طالب الهاشمي، محسن الشيخ راضي، أحمد العزاوي (أبو الجبن)، علي رضا، سعدون شاكر، وغيرهم كثيرون في كل مدينة كبيرة وصغيرة في عموم العراق.

إسقاط جنسية المناضلين

من جرائم البعث عام 1963

"ردَّة شباط عام 1963 مسؤولة بشكل مباشر عن تردي المستوى الثقافي والعلمي في العراق، لأنَّها حاربت المثقفين المخلصين"

بموجب الكتاب السرّي والمستعجل الصادر من وزارة الداخلية بتاريخ 1963/10/26، المرقم ق. س. 11660، تم سحب (إسقاط) الجنسيَّة العراقيَّة عن اثني عشر مثقفاً عراقيَّاً. صدر هذا الأمر الجائر غير القانوني في تلك الفترة التي تعدُّ الأكثر ظلاماً ودمويَّةً في تاريخ العراق الحديث. إنَّها الفترة التي ابتدأتْ في 8 شباط 1963 وانتهت في 18 تشرين الثاني من السنة نفسها. القرار يقول سحب الجنسيَّة العراقيَّة، بموجب قانون الجنسيَّة العراقيَّة المرقم (43) لسنة 1963. أي أنَّ القانون عُدِّلَ في تلك السنة، كي تستطيع السلطة الغاشمة منح الجنسيَّة لكائن من كان، والقدرة على سحبها من أعرق العراقيين انتماءً. الجنسيَّة العراقيَّة أو أي جنسيَّة على وجه الأرض حقٌّ وليس اكتساباً، لمن يُولد من أحد الأبوين في أي وطن. ومن ثم لا يوجد من يحقُّ له سحب الجنسيَّة.

نرجع الى السؤال الأصلي من هم هؤلاء الاثني عشر شخصاً، ولماذا أسقطت عنهم الجنسيَّة؟ إنَّهم مجموعة من المثقفين المناضلين النشطين الذين ينتمون للأفكار اليساريَّة، وقسم منهم قياديون في الحزب الشيوعي العراقي، لم تستطع سلطة البعث اعتقالهم كي تعذّبهم وتسجنهم أو تقتلهم، لأنّهم كانوا وقت الانقلاب خارج الوطن، أو استطاعوا الهروب خارج الوطن. إذن كيف تقتلهم هذه السلطة من دون أن تعتقلهم؟ وجدوا الحل: بإسقاط جنسياتهم العراقيَّة، وظنّوا بذلك أنَّ هؤلاء المناضلين سوف يتخلّون عن نشاطهم السياسي وولائهم للوطن.

هذه الكوكبة تضمُّ أول امرأة تصبح وزيرة في العراق والوطن العربي، وتضمُّ شاعر العرب الأكبر، شاعر دجلة الخير، وتضمُّ كاتب أجمل مسرحيَّة عراقيَّة "النخلة والجيران" والذي ترجم 80 كتاباً من اللغة الإنكليزية والروسية للعربية. تضمُّ من عرفنا على ثورة الزنج والدولة الحمدانية. وتشمل شاعراً من روّاد الشعر الحر والذي ترجم أعمال الشاعر التركي الخالد ناظم حكمت. وتتضمن خيرة الأدباء ورواد الصحافة والفن التشكيلي. أكثر من كلِّ هذا وذاك تتضمن اثني عشر مناضلاً محبّاً مخلصاً لوطنه، مهما كانت توجهاتُهم السياسيَّة سواء اتفقنا معها أم لا. أضع بين أيديكم نسخة الأمر الإداري الجائر، وموجزاً عن هؤلاء المناضلين الذين شملهم القرار :

- **محمد مهدي الجواهري:**

وُلد عام 1899 في مدينة النجف الأشرف، شاعر العرب الأكبر، شاعر اللغة الفصيحة والشعر المقفى، شاعر الانتفاضات والثورات الشعبية، شاعر دجلة والفرات وأم عوف، الشاعر الذي كتبت أبيات من قصيدته العصماء "آمنتُ بالحسين" بالذهب في الحضرة الحسينيَّة. أديب وشاعر وصحفي ونقيب للأدباء والصحفيين في آنٍ

واحد. كان فكره تقدميًّاً حُرًّاً ولم ينتسب للحزب الشيوعي. توفي عام 1997 في دمشق ودفن في الزينبيَّة.

•فيصل السامر:

وُلد عام 1924 في مدينة "المدَيْنة" في محافظة البصرة، ومن عشيرة "السامر". خريج كلية الملك فيصل للموهوبين والمتفوقين، وخريج جامعة القاهرة في تحصيل البكالوريوس، والماجستير عام 1950 بأطروحته "حركة الزنج"، والدكتوراه بعنوان "الدولة الحمدانية في الموصل وحلب". خدم في مهنة التعليم وتقلَّدَ مناصب عدّة، حتى أصبح وزيراً للإرشاد عام 1959. ومن منجزاته تأسيس وكالة الأنباء العراقيَّة، والفرقة السمفونيَّة ودار الأوبرا. أَلَّفَ العديد من الكتب ونشر العديد من البحوث. كان فكره تقدميًّاً ولم ينتمِ للحزب الشيوعي. توفي في بريطانيا عام 1982.

• **الدكتورة نزيهة الدليمي:**

وُلدت في بغداد عام 1923، وتخرجت من كلية الطب، جامعة بغداد. ناشطة سياسيَّة من أجل حقوق المرأة، واحدى أهم رائدات الحركة النسويَّة في العراق. أول أمرأه تستلم منصباً وزاريَّاً في العراق وفي العالم العربي عام 1959، لتصبح وزيرة للبلديات. أسهمت في إعداد قانون الأحوال الشخصيَّة رقم (188) لسنة 1959. أسهمت في تأسيس وإنشاء مدينة الثورة (الصدر حاليَّاً)، ووزعت قطع الأراضي على سكان الصرائف في منطقة الشعلة. قياديَّة في الحزب الشيوعي العراقي،

وتعرَّضت للفصل والاعتقال، وصدر بحقها حكمٌ غيابيٌّ بالإعدام. توفيتْ في ألمانيا ودفنت في بغداد عام 2007.

- **الدكتور صلاح خالص:**

وُلد في البصرة عام 1925. حصل على الدكتوراه من جامعة السوربون الفرنسيَّة المرموقة في الأدب الأندلسي عام 1952. عمل أستاذاً في كلية الآداب. كاتب وأديب ومؤسس لاتحاد الأدباء العراقيين مع رفاقه من المثقفين ومنهم الجواهري الكبير. ألَّف ثلاثة كتب عن الأدب الأندلسي في أشبيلية. وهو من جيل القامات الأدبية مصطفى جواد وحسين أمين وعلي الوردي وفيصل السامر وعلي جواد الطاهر. كان محررا لمجلة الأديب، ولعب دوراً بارزاً في إصدار مجلة "الثقافة الجديدة" منذ عام 1953. وكغيره من المثقفين أمضى حياته في تقديم المآثر النضالية وإشاعة الفكر العلمي التقدمي. عمل مدرِّساً في قسم اللغة العربية بكلية الآداب وتخرج على يديه جيلٌ من المثقفين الملتزمين. تعرَّض للسجن والاعتقال في العهد الملكي عدّة مرّات لمهاجمته الاستعمار والرجعيَّة. تميز بالجرأة والشجاعة والصراحة في المواجهة. نشر العديد من الكتب والبحوث والمقالات. عضو مؤسس في نقابة الصحفيين العراقيين، وعضو مؤسس في نقابة المعلمين واتحاد الصحفيين العرب.

- **الزعيم هاشم عبد الجبار:**

أخ الزعيم عبد الكريم قاسم بالرضاعة. آمر اللواء العشرين مُشاة. رئيس هيئة التحقيق الخاصة في محكمة الشعب. أثناء محاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم عام 1959، بادر من دون أوامر من الزعيم للنزول الى بغداد والانتشار فيها تحسُّباً، لصدِّ مؤامرة إسقاط السلطة.

لم يستسغ الزعيم ذلك، وأبعده كما أبعد الكثيرين ممن كانوا مخلصين له ولثورة تموز. إلتحق بوزارة الدفاع يوم 8 شباط 1963 للدفاع عن ثورة تموز، مثله مثل وصفي طاهر وفاضل عباس المهداوي. في مساء يوم 8 شباط وبعد أن تبيّنَ أن المؤامرة قد نجحتْ، طلب الزعيم من العديد من الضباط ومنهم هاشم عبد الجبار التسلّل في جنح الليل عبر ضفاف نهر دجلة. توفي عام 1975 في ألمانيا ودُفِنَ فيها.

- **نوري عبد الرزاق حسين:**

أرسله والده للدراسة في إنكلترا في العهد الملكي، إلّا أنه فُصِلَ لنشاطه السياسي ضد حلف بغداد. ذهب الى القاهرة للدراسة. عاد الى العراق بعد ثورة تموز عام 1958 وأصبح السكرتير العام لمنظمة الشبيبة الديمقراطية، ثُم أصبح سكرتير اتحاد الطلاب العالمي عام 1960. ناشط سياسي عالمي، صديق لياسر عرفات وجيفارا وجورج حبش وخالد محي الدين وعبد الفتاح إسماعيل والكثير من الثوريين اليساريين في العالم.

- **عبد الوهاب البياتي:**

وُلد عام 1926 في بغداد. وهو من جيل روَّاد الشعر الحديث (الحر)، مُعاصراً لبدر شاكر السيَّاب ونازك الملائكة. خريج الأدب العربي. عمل صحفيَّاً، وكتب في مجلة "الثقافة" وأعتقل في خمسينيات القرن الماضي لمواقفه السياسيَّة. ترجم الكثير من أعمال الشاعر التركي التقدمي "ناظم حكمت"، وعانى ما عاناه حكمت من تشرّد وسجون واضطهاد. وبسبب أفكاره عاش جزءاً كبيراً من حياته في المهجر، ما بين القاهرة ودمشق وبيروت. عمل ملحقاً ثقافيّاً في أسبانيا في الثمانينيات، وتأثر كثيراً بالأدب الإسباني. توفي ودُفِنَ في دمشق عام 1999.

• **ذو النون أيوب:**

وُلد في الموصل عام 1908. صحفي وروائي ومحرر وكاتب قصص قصيرة. كاتب لسير ذاتية ومدرس وناقد أدبي. انتسب للحزب الشيوعي لفترة وجيزة لا تتعدى العام الواحد. عمل في الحزب الوطني الديمقراطي، وجمعية الدفاع عن الشعب العراقي في براغ عام 1963. توفي في بغداد عام 1996.

• **غائب طعمة فرمان:**

وُلد عام 1927. تخرج من كلية الآداب بمصر. له الكثير من الأعمال الأدبية القصصية والمسرحية، من بينها القربان، المخاض، ظلال على النافذة، وأشهرها مسرحية "النخلة والجيران" التي مازالت خالدة في ذاكرة من شاهدوها، كما قدمتها فرقة المسرح الحديث. ترجم ثمانين كتاباً من اللغة الإنكليزية والروسية الى اللغة العربية. مجموعاته القصصيَّة، حصاد الرحى، ومولود آخر. يقول عنه الناقد جبرا إبراهيم جبرا: (يكاد يكون الكاتب العراقي الوحيد الذي يُركّب أشخاصه وأحداثه في رواياته تركيباً حقيقيّاً). توفي ودُفِنَ في موسكو عام 1990.

• **محمود صبري:**

وُلد يوم 14 تموز عام 1927 في بغداد. درس العلوم الاجتماعية في إنكلترا، وتطور اهتمامه الى فن الرسم، ليصبح فناناً تشكيليّاً، وأحد رواد الفن العراقي الحديث. كان رائداً في القضايا الاجتماعية والسياسية في خمسينات القرن الماضي. درس الفن في أكاديمية موسكو للرسم والنحت والعمارة. عضواً مؤسساً في "جماعة الرواد" في عام 1950 مع فائق حسن. لديه عدة مطبوعات عن الفن

والفلسفة والسياسة باللغتين العربية والإنكليزية. يقول عنه الناقد جبرا إبراهيم جبرا: (كان لمحمود صبري تخطيط قوي جعله الأساس فيما يرسم من مشاهد الفقر والشظف والتمرّد، مؤكداً على الطريقة العراقيَّة في الحياة، جاعلاً منها صرخة عنيفة في وجه الظالم، اجتماعيّا كان أم سياسيّاً.

- **د. رحيم عجينة:**

وُلد في مدينة النجف الأشرف عام 1925. ترعرع في محلة "البراك" في شارع موسكو، وهي محلة حاضنة للناشطين اليساريين. من العوائل التي سكنتْ تلك المحلة عائلة الوجيه "محسن عجينة" والد الدكتور رحيم، وعائلة السيد أحمد الرضي الموسوي والد الشهيد حسين أحمد الرضي "سلام عادل" سكرتير الحزب الشيوعي العراقي إبَّان ردَّة 8 شباط 1963. تخرج دكتور عجينة طبيباً وتخصص بالأمراض المستوطنة وتزوَّج المناضلة دكتور بشرى برتو، من عائلة برتو المعروفة بمواقفها الوطنيَّة. رئيس جمعية الطلبة العراقيين في لندن، ومن قادة الحزب الشيوعي العراقي. يقول عنه عديله الدكتور فاروق برتو في نعيه له بعد وفاته ودفنه في لندن عام 1996: يمتاز بـ (الخلق الرفيع وعفة اللسان والأدب الجم حدَّ الخجل، يحمر وجهه خجلاً ويهرب من المجلس الذي يلفظ فيه قبيح الكلام. الصدق والأمانة خصلتان متميزتان من خصاله. ذا فكر واسع جوَّال، عاكفاً باستمرار على القراءة والبحث والمتابعة اللصيقة بالأحداث والتيارات الفكريَّة المهمة).

- **عزيز الحاج علي حيدر:**

وُلد في مدينة الكاظميَّة عام 1926. تخرّج من دار المعلمين العالية عام 1947. انتسب للحزب الشيوعي العراقي عام 1946، وحُكم عليه بالمؤبّد عام 1948 التي قضى معظمها في نقرة السلمان، لحين إطلاق سراحه بعد ثورة 14 تموز 1958. درس في موسكو وبراغ، وأصبح قياديًّاً في الحزب الشيوعي، ليقود بعد ذلك أكبر انشقاق في الحزب عام 1967، تحت تسمية "القيادة المركزيَّة"، التي سرعان ما انتهت بعد اعتقاله من قبل سلطة البعث عام 1969، واعترافات عزيز وبقية القادة تحت وطأة التعذيب. عُيِّنَ سفيراً للعراق لدى اليونسكو لمدة ثلاثين عاماً. استطاع في تلك الفترة من أن ينشر ثلاثين كتاباً عن سيرته وتجاربه السياسيَّة التي كان من أهمها "شهادة للتاريخ: أوراق في السيرة الذاتيَّة". يقول عنه الكاتب والناشط السياسي، الدكتور عبد الخالق حسين: (كان في منتهى الوطنيَّة والإنسانيَّة والطيبة والأخلاق الرفيعة). توفي ودُفِنَ في باريس عام 2020.

كيف يمكن لأي سلطة مهما كانت غاشمة أن تُبعدَ روّاداً للثقافة في بلدها. إنّها مجموعة تتودّد الدول الأخرى لاحتضانهم والاستفادة من نتاجهم الفكري والتعليمي. هؤلاء عينة لما حدث في عام 1963 بعد ردّة 8 شباط الدمويَّة. إذ تمَّ اعتقال الآلاف من الطلبة والمعلمين والأساتذة الجامعيين والعمال الناشطين، ورميهم بالسجون وتعذيبهم وقتل العديد منهم. ردّة شباط عام 1963 مسؤولة بشكل مباشر عن تردي المستوى الثقافي والعلمي في العراق لأنَّها حاربت المثقفين المخلصين بشتى الوسائل ومنها إسقاط الجنسيَّة عن الذين لم تستطع أن تضع أيديها على أعناقهم. جرائم ما زالت بلا عقاب.

فهـــود بين نخـــيل الكوفـــة

تعرَّضتْ مدينتا النجف والكوفة الى حملة اعتقالات وبطش وتعذيب واسعة النطاق، بعد ردّة 8 شباط 1963 الدمويَّة، وذلك بسبب اعتبار المدينتين من المدن ذات النفوذ العالي للفكر والحركة الشيوعية والوطنية في تلك السنوات. وجديرٌ بالذكر أن العديد من قادة الحزب الشيوعي العراقي ومناصريهم من مدينة النجف الأشرف، فعلى سبيل المثال لا الحصر الشهيد حسين الرضي (سلام عادل) والشهيد حسن عوينة، وشاعر العرب الكبير محمد مهدي الجواهري وشاعر الشعب محمد صالح بحر العلوم. أما مدينة الكوفة فقد خطت لنفسها ملحمة ثوريَّة بطوليَّة إبَّان تلك الفترة السوداء من تاريخ العراق. إذ استطاعت مجموعة من المناضلين الذين ترجع أصولهم لعوائل في ريف الكوفة، الانسحاب من المدينة، واللجوء الى بساتين وأهوار الكوفة تجنّباً للاعتقال والتعذيب والاضطهاد المستمر الذي كانت تتقنه وتتفنن به عصابات الحرس القومي. فهودٌ في مقتبل العمر قرّروا أن يخوضوا تجربة المقاومة المسلحة بقرار محليٍّ وربما شخصيّ، إذ كانت التنظيمات الحزبيَّة معطّلة على المستوى القطري .

كانت المنطقة التي تجمع المقاومين لحكم البعث تمتدُّ ما بين الشامية والكوفة ونهر الفرات. وهي مناطق زراعية وبساتين نخيل وأهوار. وجد أهالي هذه المنطقة من فلاحين ومعدان وأبنائهم من الطلبة أنفسهم في مجابهة مع السلطة، التي اغتالت قادة ثورة تموز عام 1958 التي شرعت لهم قانون الإصلاح الزراعي وأنهت تسلّط الإقطاع عليهم اجتماعيّاً واقتصاديّاً. وكان للشيوعيين انتشار واسع بين هذه المجتمعات الصغيرة من خلال التنظيمات الحزبية والجمعيات التعاونية واتحاد الفلاحين. لذلك حينما جهّزتْ سلطات

البعث حملتها الأولى على قرية "بور سعيد" في ريف الشاميَّة، لملاحقة المقاومين لقتلهم او اعتقالهم، لم يجدوا فيها سوى النساء والأطفال، لأنَّ أهالي المنطقة علموا بالهجوم مسبقاً.

قرية بور سعيد، الشامية، موقع الهجوم الأول على الثوار

من بين المقاومين الأبطال كان الرفيق نجم عبد أبو اللول (ابو واثق)، الذي انخرط بالنشاط السياسي منذ نعومة أظفارهِ. كان من الشيوعيين الذين لعبوا دوراً نشطاً هو وعائلته في مقاومة انقلاب 8 شباط الدموي 1963. كان بصحبته الرفيق باقر إبراهيم والرفيق عدنان عباس الذي سَهَّلَ تحركاتهم في هذه المواقع، ولعب دوراً مشهوداً في تعبئة وتنظيم الشباب وتشكيل فرق المقاومة، وتنسيق الارتباط بين المدينة والريف، وسَخَّرَ كلَّ إمكانيات أفراد عائلتهِ واقربائهِ الطيبين لهذه المهمات. ولهذا المكان أهمية استثنائية، لموقعهِ المطلِّ على نهر الفرات وقربهِ من مدينة الكوفة. لقد أضحت المنطقة بأكملها منطقة حاضنة وبيوت جميع الرفاق وعناصر

المقاومة مفتوحة لتسهيل عمل المقاومة على الرغم من بطش سلطة الانقلاب، وحمامات الدم التي أغرقت فيها البلاد.

بيئة الثوار مدينة الكوفة ومحيطها من البساتين والقرى

وحينما أصاب حزب البعث والحرس القومي ذعرٌ شديدٌ بعد حركة 3 تموز 1963 الثوريَّة في معسكر الرشيد بقيادة الشهيد البطل حسن سريع، أدركوا أنَّهم مهددون بالسقوط، بعد أن كاد عريف في الجيش أن ينجح بأقصائهم من الحكم. بعد تلك الحركة شنَّ الحرس القومي حملة استباقيَّة واسعة جديدة ضد الوطنيين والشيوعيين على عموم الوطن. فاعتقلوا الذي لم يُعتقل بعد، او الذين اعتقلوا وأطلق سراحهم. وبناءً على ذلك كان لا بدَّ من أن يتمَّ اعتقال المناضلين الهاربين في ريف الكوفة.

لقد حاول الحرس القومي اعتقالهم عدَّة مرَّات، وكل مرَّة يفشل

بسبب وعي المناضلين والحماية التي تلقوها من أهالي المنطقة الطيبين المتعاطفين معهم. هذه المرّة استخدم الحرس القومي أسلوب الخديعة، حيث نصبوا لهم فخّاً عن طريق أحد المتخاذلين الذي تظاهر بالرغبة في الالتحاق بالثوار. وبذلك تمَّ التخطيط للحملة الثانية بشكل متقن وخبيث. ذهب عصر يوم العاشر من آب عام 1963، كل من المناضلين "حسين شعلان الماضي، وعباس أبو اللول، وابن أخيه نجم أبو اللول". ذهب ثلاثتهم على موعدٍ محدّدٍ في منطقة "البو نعمان" القريبة من الكوفة، لانتظار شخصٍ يريد أن يلتحق بالثوار، ففاجأهم في الموقع أكثر من ثلاثين مسلّحاً من الشرطة السيارة وعناصر الحرس القومي، تحت إمرة محمد رضا الشيخ راضي. وحينما أحسَّ المناضلون بالفخِّ الذي وقعوا فيه، وأنَّهم مطوّقون، رفضوا أوامر التسليم وهمُّوا بالانسحاب، إلّا أنَّ القوة المداهمة فتحت النار عليهم، فما كان منهم إلّا أن يردوا بالمثل وتمكّنوا من إصابة قائدهم محمد رضا، إصابة بليغة، إلّا أن المناضل "عباس ابو اللول" الذي كان في المقدمة سقط شهيداً، وتعرّض ابن أخيه نجم أبو اللول لإصابة بليغة في جسمه. عندها أخذت عناصر الشرطة والحرس القومي، بإطلاق النار عشوائيًّاً بكل الاتجاهات، فسقط رجل بريء اسمه "عبد النبي" الذي كان يعمل في بستانهِ، واعتقل الحلاق "عليوي" الذي افترضوا أنَّهُ يقدم العون والمساعدة للمقاومين. وهبَّ أهل قرية "البو النعمان" رجالاً ونساء يتقدمهم شيخهم الشجاع حامي حمى تلك الديار "عباس متعب النعماني" على صوت الرصاص، وتصدّوا لتلك العصابة الطارئة غير آبهين بإطلاق النار الكثيف، مما سَهَّلَ انسحاب حسين شعلان والمصاب نجم أبو اللول الى مكان آمن. كانت معركة مشرّفة بين فهود الكوفة وذئاب سلطة فاشية جائرة، أبلى فيها المناضلون والبو نعمان البواسل، بلاءً حسناً ومشرفاً.

انسحب نجم أبو اللول الى منطقة طبر سيد جواد التي التجأ اليها بعد إصابته في الاصطدام، حيث قامت بنت الحاج الشهم "عبد عگيلي" بتوفير العلاج لهُ، عن طريق قريب لهم يعمل في مستشفى الفرات

الأوسط. ولما انكشف امر ابنته ارسلها الى ناحية القادسية لإخفائها في بيت شقيقه، ولم ترجع إلا بعد سقوط الحرس القومي وحزب البعث في اليوم الثامن عشر من شهر تشرين الثاني عام 1963. كان نجم ابو اللول ورفاقهِ مرحب بهم في المنطقة، ويقضي جل وقته في حديقة الحاج عبد عگيلي. بعد مدة تسرب الخبر للحرس القومي عن مكان تواجده، مما أدى الى اعتقال عبد عكيلي، الذي جرى تعذيبهُ وملاحقة ابنته، لكنهُم لم يحصلوا منه على اية معلومات تؤدي الى اعتقال نجم او غيره من الرفاق. عاد الحرس القومي بأسرع ما يمكن الى مستشفى الفرات الأوسط ومعهم قائد الحملة المصاب "محمد رضا الشيخ راضي" الأخ الأصغر لـ "محسن الشيخ راضي" عضو القيادة القومية والقطرية لحزب البعث، والمسؤول حزبياً عن قصر النهاية سيئ الصيت. وصلوا المستشفى مذعورين خائفين بما حصل لمحمد رضا شيخ راضي، محاولين من خلال الصراخ والصياح والتهديد للطاقم الطبي ان ينقذوا حياة مصابهم الذي كانت المنية قد وافته برصاص الثوار على ارض المعركة. وفي حديث مباشر لي مع أحد قادة الحرس القومي الذين شاركوا في تلك الحملة في حينها عن سبب رعبهم، قال لي بالحرف الواحد إننا لسنا خائفين من الهاربين (الثوار)، إنما نحن مرعوبين من نقمة وانتقام محسن الشيخ راضي منا، الذي سيحملنا مسؤولية مقتل اخيه.

المصادر:

مذكرات نجم أبو اللول
أحمد القصير (أبو ماجد)
هذا ما حدث / عدنان عباس
رسالة غير منشورة /عارف الماضي
حديث /جواد عبد عگيلي

التقييم الموضوعي لثورة تموز عام 1958

ما زال العديد من المثقفين والمؤرخين يُعيدون ذكريات ثورة 14 تموز عام 1958 ويُقيِّمون تلك التجربة وزعيمها عبد الكريم قاسم من وجهات نظر متباينة جدَّاً. فمعظم اليساريين والشيوعيين موقفهم واضحٌ في التقييم الإيجابي للثورة وزعيمها، على الرغم من أنَّ معظم قادة الثورة وزعيمها لم يشاطرهم المشاعر نفسها أو التقييم نفسه. ويعلم اليساريون عموماً والشيوعيون خاصة أنَّهم لاقوا من الاضطهاد والحيف والعزل والسجون في عهد قاسم أكثر مما نالهم في زمن العهد الملكي. إلّا أنَّهم ظلُّوا مناصرين ومدافعين عنه بحجة أنَّ "تقييمهم للثورة ولعبد الكريم قاسم يعتمد على ما تقدمه الثورة من إنجازات تشريعيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة لعموم الشعب، ولا يعتمد على طبيعة علاقتهم به فقط".

أما الذين يُقيّمون الثورة وزعيمها عبد الكريم قاسم سلباً، سواءٌ في فترة حكمه تلك أو امتداداً ليومنا الحاضر، فإنَّهم نوعان: النوع الأول هم المتضرّرون بشكلٍ مباشرٍ من الثورة، وهذا يشمل العائلة المالكة والحاشية والساسة المقرَّبين لنوري باشا والطبقة الثريَّة الأرستقراطيَّة. والنوع الثاني هم من تضرروا لاحقاً من تشريعات الثورة بسبب قوانين الإصلاح الزراعي وقانون الأحوال الشخصية وهم شيوخ العشائر ومُلّاك الأراضي ورجال الدين. وكان من الطبيعي لهاتين المجموعتين أن تحاربا الثورة بشتى الوسائل مستغلة بشكلٍ فعّال الحوادث المؤسفة الحزينة التي تمّت بها تصفية العائلة المالكة وسلوك الغوغاء في سحل الوصي عبد الإله ونوري السعيد في شوارع بغداد. وعلى الرغم من أنَّ ذلك كله لم يحدث بأمرٍ مباشرٍ او غير مباشرٍ من الزعيم او من أي حزب سياسي، إلّا أنَّها لُصقتْ بهم الى يومنا هذا وأصبحت قميص عثمان العراق.

وكما يحدث عادةً في كلِّ الثورات فإنَّها تأكل رجالَها. إذ حدث الخلاف القاتل بين الزعيم والشخص الثاني من قادة الثورة العقيد عبد السلام عارف. فأصرَّ عارف على الوحدة الفوريَّة مع الجمهوريَّة العربيَّة المتحدة (مصر وسوريا) بينما فضَّلَ قاسم أن يتمَّ الاتحاد تدريجيَّاً وبخطوات محسوبة. وهنا قيَّمَ البعثيون والقوميون من الضباط والشباب أن الزعيم لا يملك شعوراً قوميَّاً واتهموه بالشعوبيَّة، وزاد الطين بلّة أن أيَّدَ الشيوعيون قاسم وتفضيلهم للاتحاد الفدرالي التدريجي بدلاً الوحدة الاندماجيَّة الفوريَّة. وأصبح الخلاف ليس مع قاسم وإنَّما بين القوميين والبعثيين من جهة والقاسميين والشيوعيين من جهة أخرى.

حقيقة الأمر أن عبد الكريم قاسم وتنظيم الضباط الأحرار لم يكونوا مُحدّدين بأيدولوجيا واضحة المعالم سوى، إسقاط الملكيَّة وتأسيس الجمهوريَّة على غرار التجربة المصريَّة. كان معظمهم ذوي اتجاهات ومشاعر "مزدوجة" قوميَّة عروبيَّة من جهة ونهج يساري علماني من جهة أخرى. لذلك انقسم الضباط الأحرار والشارع العراقي في مسألة الوحدة الفوريَّة. وتحوّلتْ الى فرصة للخلاف لا أكثر ولا أقل، أستُغلتْ للحشد الجماهيري وللسيطرة على الحكم من قبل البعثيين. وبناءً عليه جرتْ محاولة عبد السلام عارف للسيطرة على السلطة بعد شهرين من قيام الثورة، أعقبتها حركة رشيد عالي الكيلاني، ثم حركة الشوَّاف في الموصل بتنسيق مع المخابرات المصريَّة بعد تسعة أشهر من الثورة، ثم أحداث كركوك المروّعة بين الأكراد والتركمان في الذكرى السنويَّة الأولى للثورة، ومحاولة اغتيال الزعيم في شارع الرشيد، وتمرّد البارزاني في شمال العراق، وقضية الكويت، والمشكلات مع إيران ومصر والأردن، وغيرها لتتكلَّلَ بقانون رقم (80) الذي استرجع العراق بموجبه أكثر من 95% من الأراضي غير المستثمرة من الشركات النفطيَّة الأجنبيَّة لغرض استثمارها مباشرةً من قبل العراق. وكان هذا القانون القشةَ التي قَصَمَتْ ظهرَ البعير والتي أدت الى اغتيال الثورة وإنجازاتها وزعيمها ورفاقه بضربة واحدة في يوم 8 شباط عام 1963.

إنَّ تقييم الزعيم على أنَّه كان وراء تصفية العائلة المالكة ليس صحيحاً، واتهامه كونه شيوعيَّاً او يساريَّاً متآزراً معهم أيضاً غير صحيح، وأنَّه كان مناهضاً للوحدة العربيَّة عارٍ عن الصحة ويشهد له سجل حرب فلسطين ودعمه للثورة الجزائريَّة ومنظمة التحرير الفلسطينيَّة. إنَّ ثورة تموز وزعيمها ضحيَّة لمن حكموا العراق قبلَهُ، ومن دمَّروا العراق بعدَهُ ليومنا هذا. وما زلنا حتى الآن نسمع التنكيل من دون إثبات أو أسباب من أنَّ ثورة تموز هي من فتح أبواب جهنم على العراق، ناسين أنَّهم لو درسوا حقبة الحكم الملكي لوجدوا أنَّها لم تكن مستقرَّة أبداً، وأنَّها شهدت العديد من الأحداث الدمويَّة والمحاولات الانقلابيَّة والانتفاضات الشعبيَّة.

إنَّ هذا لا يعني أنَّ الثورة وزعيمها معصومون من الأخطاء والمسؤوليَّة، لا بل والحق يقال إنَّ نهاية الجمهوريَّة الأولى بهذا الشكل المأساوي تقعُ على عاتق زعيمها بالدرجة الأولى، وعلى القوى القوميَّة التي سعتْ الى السلطة بشكلٍ دمويٍّ بالدرجة الثانية. إذ إنَّ احتفاظ الزعيم بالسلطات التشريعيَّة والتنفيذيَّة وحتى القضائيَّة (الأحكام العرفيَّة) طيلة فترة حكمه وزجه للمعارضة السلميَّة في المعتقلات والسجون وعدم تأسيسه لمجلس قيادة الثورة أو مجلس نواب منتخب وغير ذلك من الأمور مهَّدَ ومنحَ خصومه أدوات فعَّالة أستُغلتْ في خلق الظروف المواتية لردّة 8 شباط 1963.

أسئلة ستبقى في ذهن المؤرخين:

- هل كانت هناك ضرورة ملحّة لثورة 14 تموز 1958؟
- ما هو حال العراق اليوم لو لَمْ تحدث ثورة تموز أو أيّ حركة مماثلة له؟
- ماذا كان سيحدث لو سبق الشيوعيون البعث واستولوا على الحكم؟
- ماذا كان سيحدث لو فشلت حركة 8 شباط 1963؟
- هل تعرفنا فعلاً على شخصية وأفكار الزعيم عبد الكريم قاسم؟
- هل كان موقف اليسار في التأييد المطلق للزعيم عبد الكريم قاسم في بداية الثورة ثم معارضته بعد عام 1960 صحيحاً؟

الخلاصة والدروس والعبر

• إنَّ طريق الانتماءات السياسيَّة هو طريقٌ صعبٌ ووعر، يُكلّف الإنسان حريته أو وظيفته أو حياته أو كلها في آنٍ واحد .
• إنَّ الأحزاب السياسيَّة يجب أن لا تسمح للذين هم دون سن الرشد بالانتماء الى صفوفها، والتعرّض للخطر.
• لم يمر العراق خلال المئة عام من تاريخه الحديث، بأيِّ مرحلةٍ كان فيها النشاط السياسي المدني مسموحاً به للجميع، ضمن ظروف تتسم بالحرية والديمقراطية وضمان لحقوق الإنسان.
• لم تسمح كل الحكومات وكلها بوليسيَّة خلال المئة عام المنصرمة، أن يعبِّرَ الشعب عن آرائهِ، لدرجة أن الحكومات لا تسمح له حتى بالتظاهر لتأييدها، إلّا إذا هي التي أرادت وقرّرت ذلك.
• إنَّ العراق خسر الآلاف من خيرة أبنائه من الطلبة اللامعين والموظفين الاكفاء، والكفاءات الطبيَّة والهندسيَّة، والمزارعين المنتجين والعمال الفنيين نتيجة للصراعات السياسيَّة القاسية والدمويَّة حدَّ التصفيات الجماعيَّة.
• إنَّ العراقيين لم يهاجروا الى الخليج وأوروبا وأميركا وأستراليا وحتى الى الصين لأسباب اقتصاديَّة للبحث عن فرص عمالة أفضل أو شروط استثمار أضمن، وإنما هاجروا لأسباب سياسيَّة قاهرة، واضطهاد قومي أو عرقي أو ديني أو طائفي.
• المرحلة التي يعيشها العراق سابقاً والآن ولاحقاً لا تبشِّرُ بخيرٍ ولا نرى بصيصَ نورٍ في نهاية النفق، بل على الأغلب لا يوجد نفقٌ للخروج من هذا الكابوس. إلّا أنَّ ذلك لا يمنع الوطنيين الأحرار من الاستمرار في البحث عن الطرق والسبل التي تجعل الوطن حُرَّاً، وتمنح شعبنا السعادة والعدالة التي يستحقها.

وَلَمْ يَعُدْ ذلكَ المناضل صغيراً

كلمة أخيرة

الهدف المرتجى من هذا الكتاب هو للتذكير بجرائم مهولة حدثت ضد الإنسانية في العراق وفي كل العهود السياسية.

وللتذكير بالتضحيات الجسام التي قدمتها الأجيال
والتي لا يدركها جيل ما بعد الألفين.
أنحني بخشوع وإجلال للشباب والشابات الذين انفرد بهم الجلادون بقسوة سادية في الليالي المُظلمة
والغرف الآسنة، بعيداً عن اي رقيب او قريب. شباب معظمهم جنود مجهولون لم يسمع عنهم أحد.
لا يعرف بهم أحد. لم يكتب عنهم أحد. لم ينشر صورتهم أحد.
أكتب هذا الكتاب كي احث الآخرين في البحث والتدقيق
عن جرائم الفترة التي يعتقدها الكثيرون، انها كانت العصر الذهبي!

المؤلف
محمد حسين النجفي

المناضل الصغير

اخترق المناضلون المديات، منهم من ذهب باحثاً عن ملاذ يبث أفكاره من هناك، يحمل مشعل الحرية والتحرر، مبتعدين عن إراقة الدماء، ومنهم من سحقتهم آلة السلطة الشمولية سحقاً، عانقوا الموت مبتسمين ابتسامة العاشق لمعشوقته، مواجهين حرارة الموت وظلم الظالم، منتظرين ضوء الفجر وإن كان بعيداً

نقرأ في «المناضل الصغير» للمفكّر الحر محمد حسين النجفي آلام شعب وآماله أفراداً وجماعات، بوصفه سرديّة تطرح أسئلة على الذات والآخر بالقدر الذي تجيب فيه عن الأسئلة القلقة، الكتاب مسيرة تاريخ

الدكتور محمد عبدالرضا شياع
كاتب وأستاذ جامعي عراقي
الولايات المتحدة الأمريكية

isbn: 978-9922-9858-7-9

9 789922 985879

العراق - بغداد - شارع المتنبي
هاتف: 07717938500
e-mail: ahwar.publisher@gmail.com
page دار ومكتبة أهوار | أهوار للنشر والتوزيع | darahwar
للتواصل مع دار أهوار عبر واتساب

تصميم الغلاف